892.75 R072YmA CN

AUB LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

LAW LIBRARY

892.78
R572Y
c.1

أمين الريحاني

تأليفه حياته ومختارات من آثاره

Cat. Jan. 1951

جمعه وبوّبه

البرت الريحاني

X

٢ ايار ١٩٤١

تقدمة ولاء
الى الصديق الاديب
البير اديب
من
البرت الريحاني

78192

Replacement

مطبعة الريحاني — بيروت ١٩٤١

BRITISH UNIVERSITIES
LIBRARY
OF CALIFORNIA

تآليفه

التآليف العربية المطبوعة	طبع	سنة
موجز تاريخ الثورة الفرنسية	الهدى ، نويورك	١٩٠٢
المحالفة الثلاثية	الهدى ، نويورك	١٩٠٣
المكاري والكاهن	الهدى ، نويورك	١٩٠٤
	طبعة ثانية الفن الحديث بيروت	١٩٣٤
ثلاث خطب	بيروت	١٩٠٨
الريحانيات الاول والثاني	صادر ، بيروت	١٩١٠—١٩١١
	طبعة ثانية صادر ، بيروت	١٩٢٢
زنبقة الغور	شركة الفنون ، نويورك	١٩١٥
خارج الحريم او (جهان)	شركة الفنون ، نويورك	١٩١٧
	طبعة ثانية مطبعة السعادة ، مصر	١٩٢٢
	طبعة ثالثة صادر ، بيروت	١٩٣٣
الريحانيات الثالث والرابع	صادر ، بيروت	١٩٢٣—١٩٢٤
ملوك العرب جزءآن	صادر ، بيروت	١٩٢٤
	طبعة ثانية صادر ، بيروت	١٩٢٩
تاريخ نجد الحديث	صادر ، بيروت	١٩٢٧
النكبات	صادر ، بيروت	١٩٢٨
التطرف والاصلاح	صادر ، بيروت	١٩٣٠
لنتم الشعراء	الكشاف ، بيروت	١٩٣٣
فيصل الاول	صادر ، بيروت	١٩٣٤

التآليف العربية المطبوعة	طبع	سنة
وفاء الزمان	البلاغ، بيروت	١٩٣٤
قلب العراق	صادر، بيروت	١٩٣٥

التآليف الانكليزية المطبوعة	الناشر	سنة
رباعيات ابي العلاء المعري The Quatrains of Abu'l-Ala	Doubleday, Page & Co. New York	١٩٠٣
المرّ واللبان Myrtle and Myrrh	The Gorham Press Boston	١٩٠٥
كتاب خالد The Book of Khalid	Dodd Mead and Co. New York	١٩١١
اللزوميات The Luzumiyat of Abu'l-Ala	James T. White and Co. New York	١٩١٨
تحدر البلشفية The Descent of Bolshevism	The Stratford Co. Boston	١٩٢٠
جادة الرؤيا The Path of Vision	James T. White and Co. New York	١٩٢١
انشودة الصوفيين A Chant of Mystics	James T. White and Co. New York	١٩٢١
ابن سعود ونجد Ibn Saoud of Arabia. His People and his Land	Constable and Co. Ltd. London	١٩٢٨
وفي بوسطن تحت اسم : The Maker of Modern Arabia	Houghton Mifflin Co. Boston	١٩٢٨

التآليف الانكليزية المطبوعة	الناشر	سنة
حول الشواطىء العربية Around the Coasts of Arabia	Constable and Co. Ltd. London	١٩٣٠
	Houghton Mifflin Co. Boston	١٩٣١
بلاد اليمن Arabian Peak and Desert	Constable and Co. Ltd. London	١٩٣٠
	Houghton Mifflin Co. Boston	١٩٣١

التآليف التي لم تُنشر بعد

العربية	الانكليزية
المغرب الاقصى جزء آن	العراق
قلب لبنان	الملك فيصل
سجل التوبة (مجموع روايات)	دروس في الف ليلة وليلة
الريحانيات خامس وسادس وسابع	وجده
وثامن	كريمه
رسائل امين الريحاني	
وكتاب لم يقرر اسمه بعد	

عدا مقالاته ومحاضراته ورسائله الانكليزية التي تبلغ عشرة مجلدات

تُرجمت كتاباته الى ما يزيد على خمس عشرة لغة

ان حقوق طبع جميع هذه الكتب بما فيها هذا الكتاب وترجمتها محفوظة

ما قاله امين الريحاني سنة ١٨٩٨

يروى عن بعض الكتاب والشعراء انهم الفوا الكتب
وهم احداث وانا قد بلغت الثانية والعشرين
من عمري ولم اكتب مجلداً .

الى

روح امّ امين

التي رافقتني في جادة الحق والحب والاخلاص

روح امين

فل كلمتك وامشى

امين الريحاني

رأس كبير وشعر اسود طويل ، خالطه بعض الشيب وانبسط تحت مقدمه جبهة خط الزمان فيه ما ازدحم من الافكار . وحاجبان مقوسان تحتهما عينان واسعتان حادتان ناعمتان ينحدر بينهما أنف روماني طويل معكوف ، في وجه بشرته سمراء ، لا هو بالمستدير ولا بالمستطيل . ينيره فم دائم الابتسام امّا عن سخرية او عن مرح ، يعلوه شاربان اسودان قصيران وينخفض تحتهما ذقن مستدير . هذا رأس امين الريحاني (انزله الله على جسم) لا هو بالطويل ولا بالقصير ولا هو بالمهزيل ولا بالممتلي .

وهو الكاتب الواقعي والنقاد الفني في التصوير والرقص والموسيقى . وهو الشاعر الناظم في اللغة الانكليزية وابو الشعر المنثور في اللغة العربية والفيلسوف في الاجتماع والاصلاح والسياسة . صاحب الرحلات المعروفة في جزيرة العرب . والرحالة العالمي

الوحيد الذي استطاع برحلة واحدة ان يزور اكثر امارات الجزيرة العربية في العصر الحديث. اخو اسفار تعددت بين الشرق والغرب فقد مخر البحار ما يزيد عن الاثنتين والعشرين مرة. واجتاز من الارض الوف الكيلو مترات مستخدماً من طرق المواصلات حديثها وقديمها، فمن بواخر وقطارات حديدية — على الارض وفوقها وتحتها — ومن اوتوموبيلات وطيارات الى حمير وجمال وخيل وبغال. كل ذلك اختبره وخبره بعين كشافة وراح يدونه باسلوبه الشيق الجديد الذي يُعرف في الادب العربي بالاسلوب الريحاني. صاحب المؤلفات في اللغتين العربية والانكليزية، تلك المؤلفات التي لو جُمعت لبلغت مجلداتها ما ينيف على الخمسين عداً. هو رسول الشرق الى الغرب، الحامل القوة المعنوية الغربية الى الشرق والمبشر بفلسفة الشرق في الغرب، وهو سفير العرب (غير الرسمي) في الولايات المتحدة وباث روح الحرية الاميركانية في الوطن. هو المدافع عن حقوق فلسطين في العالمين الانكليزي والاميركي، والحامل باخلاص راية السلام

للجميع . هو الرافع لواء حسنات الشرق لاعين الغربيين والناقد سيئات الشرق للشرقيين .

هو الاديب الراسخ العقيدة في جهاده الذي دام اربعين سنة دون انقطاع ، والمفكر المرهف الحس الذي يتأثر بادق الظواهر الطبيعية فينفجر كالبركان يقذف حمماً من الوان الادب المتنوعة : كـ« الشذوذ في النظام الشمسي » و « في ربيع اليأس » و « المقامة الكبكجية » وغيرها مما تطالعه في كتبه او في هذه المختارات .

كان ذا همة لا تُقهر وثبات لا يُصدم وجرأة لا تحد ، وكان عشير الملوك والفقراء وصديق الشعب على الاطلاق . هو الذي قال : « اريد ان ارتفع دون ان ادوس من هم دوني او أحسد من هم فوقي » . « القوة للحق والحق لا يموت » و « قل كلمتك وامش » وغيرها مما تطالعه في كتابه الريحانيات . هو المُدوّن اسمه في دليل مشاهير اميركا والذي عاش حسبما بشر . المصلح الذي بدأ اولاً بنفسه ثم بعائلته وبعده بقرائه وبامته وهو فوق ذلك الخطيب الخطيب في اللغتين العربية والانكليزية . هذه هي

مقاييس الناس المعنوية لامين الريحاني ·

عاش امين الريحاني ردحاً من حياته في لبنان والردح الاخر في الولايات المتحدة · وكان يسكن من لبنان الفُريكة، مسقط رأسه · ومن الولايات المتحدة نيويورك مسرح شبابه واحلامه · وقد عاش في الاثنتين عيشة تقاسمها النسك والبذخ معاً · فبين هو يطلب الوحدة عندما يلجأ الى فكره وقلمه وقرطاسه اذا هو يعاشر كبار القوم وصغارهم عندما يطلب الراحة والتمتع · فلا نيويورك صرفته عن الفُريكة واكواخها ولا الفُريكة ابعدته تماماً عن مدينة المادة والبهرجة والقصور · بل كان الصلة بين الاثنتين لكثير من رجال الفكر والسياسة والمال من غربيين وشرقيين · واذا ما ضمه مجلس كان من كبار المحدثين · ذاق من العيش حلوَه ومرّه وخالط طبقات الشعوب على انواعها وظل امينا مخلصاً للشعب كل سني حياته · كان صديق الفلاح والعامل والفقير يجالس الاولاد كما يجالس الرجال ويستمد من حياة الجميع الوانه الادبية · استمد نظراته من كوة الكون واستعاراته من

لوح الوجود وشخصيات ادبه من العالم . كل هذا البس كتاباته طابعاً عالمياً ستعيش معه ردحاً طويلا من الزمن . كان هدفه الحق وكان حرباً على كل مموّه في الحياة ان ادبياً او سياسياً او اجتماعياً او دينياً . فأسيء فهمه إما عن جهل او لغاية في النفس . ألم تكن كذلك حياة ابطال الاصلاح في كل تاريخ من تاريخ الامم !! ومع هذا ورغم معاكسات الحياة عاش امين سعيداً في حياته الدنيا . عاش لعقيدته ، لحبه ، لضميره ، لاخلاصه حتى النفس الاخير ، ومن كان هذا هدفه يجني وربك من العلقم عسلاً .

اليك قطعة من مذكراته الاولى عندما كان يدرس اللغة العربية على نفسه يصف فيها كيف سار الى هدفه :

(١) « قد اعتزلت عن معارفي وعن الناس تماماً لانني رأيت ذلك موافقاً لاشغالي العقلية . وبعد ان سافرت والدتي الى سوريا واصبحت انا مع شقيقاتي واخي الصغير في البيت وضعت قانوناً للزوار وجعلت لهم يوماً مخصوصاً اجرد نفسي به لاستقبالهم والقي دروسي واعمالي جانباً في ذلك النهار . وبهذه الواسطة صرت اتمكن من الدروس . انا الان تاجراً او بالحري مديراً

(١) ننشر هذه المذكرات طبق الاصل .

لاشغال والدي اثناء تغيبه . غير اني اعود الى البيت الساعة الخامسة مساء وادرس ما استطعت من ذاك الوقت الى منتصف الليل . احياناً يأخذني النعس فاطلب النوم بغير وقته فاضطر ان استخدم الوسائط الفعالة المنبهة لتبقيني نشيطاً وصبوراً . ومن هذه الوسائط جربت القهوة ثم الشاي ثم التدخين مع الحشيش ثم سلكت مسلك ابن سينا واخذت قليلاً من الخمرة (الوسكي) كل ليلة . غير ان هذه الاشياء أضرت بي اخيراً وأثرت في اعصابي فصرت سريع التهيج و كثير الزعل و كنت اذا وبخت احدى شقيقاتي او اخي وجاوبوني استشيط غضباً . وبعد مدة تأملت في حالتي هذه وعرفت سبب تصرفي فانقطعت عن هذه المنبهات واعتضت عنها بشرطة مبلولة في الماء اتعصب بها في الليل حينما اكون مشتغلاً فتبقيني واعياً ونشيطاً . »

« افتكر في امور كثيرة واعزم على تأليف الكتب و كتابة الرسالات . ولكن لحد هذا الوقت لم اتمم منها شيئاً . نعم يجب ان اثبت على عزمي . قد انتهيت مؤخراً من « المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية ما بين البغل والحصان والحمار » ولكن سوف لا اطبعها قبل ان اصير قادراً على تصليح لغتها بنفسي . فيجب عليّ اذن ان اتمم الامور التالية في السنتين القادمتين ١٩٠١ الى ١٩٠٣ .

(١) درس اللغة العربية : بحث المطالب ومطالعة ابن خلدون ومراجعة حضارة الاسلام ونهج البلاغة والحريري والدرر والغرر ومطالعة تاريخ مصر

لزيدان . وتكميل قراءة التوراة .

(٢) مراجعة علم الفيزولوجيا وعلم الحيوان والنبات ودرس السيكولوجيا والجيولوجيا وقراءة هذه الكتب :

Darwin's : Origin of Species and Descent of Man.
Huxley's : Man's Place in Nature.
Spencer's: Data of Ethics.
Allen's : Life of Darwin.
Henri George's: Progress and Poverty.

(٣) درس اللغة الافرنسية ومطالعة :

Voltaire's: Louis XIV.

من اقوال تولستوي : Rayons de l'Aube

Victor Hugo's: Morceaux Choisis
Victor Hugo's: Extraits »

في ١١ تموز سنة ١٩٠١

اجل قضى ايامه من جهاد الى جهاد فاسمع رعاك الله ما قاله ايضاً : « ان وراء كل معركة ميدانا لمعركة اخرى . » « ان في كل فوز ما يدعو لاستئناف الجهاد » . كان امين الريحاني ينهض الساعة الخامسة والنصف صباح كل يوم . وبعد ان يستحمّ بالماء البارد، حسب عادته صيفاً وشتاءً، يتناول طعام الصباح ويدخل الى

مكتبه فيجالس ادبه حتى الظهر . ويعود الى مكتبه بعد الظهر فيلزمه من الساعة الثانية او الثالثة حتى السادسة او السابعة مساء . وبعد ان يتناول العشاء يجلس الى كتبه وصحفه يطالع حتى العاشرة او الحادية عشرة ليلاً . وهكذا دواليك في كل ايام حياته .

أصيب امين الريحاني سنة ١٩٠٧ بمرض عصبي في يده اليمنى رافقه ثلاثاً وثلاثين سنة حتى وفاته . ولكنه لم يقعده يوماً عن ثباته في عمله . ولقد كان يستريح في السنة اسبوعاً او اسبوعين او ثلاثة وكان يسميها « بالفرصة المدرسية » ولكنه حتى في هذه « الفرص » كان يحمل اوراقه معه ويتابع عمله .

كان يتألم لانتقادات يظنها غير صادقة ويسلّم بانتقادات تُقنعه . كان يعرف نفسه كبيراً ولكنه كان يعامل الناس كاقرب الناس للناس . كان سريع الغضب سموحاً ، نيّر الذهن ، حاد التهكم ، حاضر النكتة ، يقول كلمته ولا يبالي . ويعمل دائماً ورائده الاخلاص . كان انيق الملبس بسيطه نظامياً في اعماله وحياته . حلو المعشر لا يراوغ ولا يحابي ولا يكذب ولا يداهن .

كان كريماً في ماله الى حد الاسراف ومنتجاً في ادبه الى حد الضنى . ان الريحاني شخصيات متعددة في جسم ما اختلف ظاهره عن عامة الناس بسوى عقل اشبه باليَنبوع الفياض المتدفق .

اما وقد حاولت تحديد امين الريحاني للقراء فانني اعرض في صفحات هذا الكتاب نواحي ادبه العديدة منتخباً فصلاً واحداً او مختارة واحدة من كل كتاب من كتبه المطبوعة او التي لم تنشر بعد فازبدك ايها القارىء علماً بامين الريحاني الكاتب . وقد توخيت في هذه المختارات ان تكشف لك كل قطعة منها عن ناحية من نواحي ادبه ومن رغب في الاستزادة فليطالع كتبه المنشورة اسماؤها هنا .

كانون الثاني سنة ١٩٤١

البرت الريحاني

انتقاد تاريخ الثورة الافرنسية

تأليف توماس كارليل

هذا فصل من كتاب « موجز تاريخ الثورة الافرنسية » الذي طبع في نويورك سنة ١٩٠٢ وهو اول كتاب نشره الريحاني ، وفيه تتجلى نزعة المؤلف الى النقد والتدقيق والتعليل حتى في المراحل الاولى من انتاجه الادبي . تلك النزعة التي ازدهرت في ما بعد واثمرت في كتبه الاخيرة الاراء الناضجة .

لو قصد احد ان يقرأ ويفحص كل ما كتب عن الثورة الافرنسية في اللغتين الافرنسية والانكليزية فقط لصرف زمانه كله في القراءة ومات اخيراً دون ان يتمم هذا العمل الخطير الغير مفيد وقد انقسم مؤرخو الثورة الى قسمين فمنهم من تحرى سرد الحوادث دون ابداء رأي اواظهار ميل ومنهم من ألحق بكل حادثة نتفاً من فلسفته السياسية الخصوصية فنددوا بحزب ونصروا آخر . فكانوا اما ملكيين واما جمهوريين .

اما كارليل الكاتب الاسكتلندي الشهير فقد حاد عن الخطتين في كتابه المسمى « تاريخ الثورة الافرنسية » فهو لا يطرىء الجمهوريين كيوغو ولا يندد بهم كثيارس ولا يضيق على الملكية بانتقاده اكثر مما لو كانت جمهورية بل اراد في تاريخه هذا ان يكون خالي الغرضية غير متحيز لحزب

من الاحزاب ولكن نيته هذه الحميدة قد اوقعته في خطأ عدم الاكتراث والشك .

من كلف نفسه قراءة شيء من تآليف كارليل العديدة يتبين له بعد قليل من التفكير ان هذا الرجل كان مصاباً بدائي السويداء والتخمة لان نتيجة هذين العارضين دائماً تنجلي في كتاباته من وراء ستار تهكمه الفظ وانتقاده الجارح . والكتاب الذي نحن بصدده الآن مفعم بالازدراء والسخرية والتهكم وهذا الاسلوب غير لائق بسرد التاريخ فهو كثيراً ما يشوش المعنى الحقيقي ويجعل القصة البسيطة غامضة ذات شعبات وثنايا مختلفة لا يقدر القارىء على تفهمها الا بعد ان يعريها من ثوبها المزخرف الكثير الالوان .

فليس من العدل ان يدعى هذا التأليف تاريخاً اذ انه خال من الاعتقاد والرأي في الحوادث التي يسردها ومملوء بوساوس الفيلسوف العديدة التي نستحسنها في بقية مؤلفاته ونستهجنها في كتاب دعاه تاريخاً ولهذا كان مفتقراً الى روح جدية لترفعه من طبقة الخلقيات الى طبقة العقليات ولا نقدر ان ندعو الكتاب رواية لان فصوله غير متصلة ببعضها اذ نقرأ كل فصل بذاته ولا تتولد فينا رغبة لمعرفة السابق واللاحق . فالكتاب اذن مجموع مقالات متفرقة في حوادث ورجال الثورة الافرنسية مسطرة على قرطاس عدم الاكتراث ببراعة التهكم والاستخفاف ولا رأي خصوصي له في جميع تلك الحوادث واولئك الرجال سوى انه تارة يظهر كانه مع الجميع وطوراً ضد الجميع وهذه هي المزية التي خدعت المنتقدين في زمان كارليل فوضعوا كتابه هذا في طبقة التاريخ بالوقت الذي يجب ان يعد من كتب الخلقيات

والوصف كيف لا وشخصية المؤلف ظاهرة في كل صفحة من الكتاب، فهو يقيس كل حادثة وكل شخص له علاقة في هـذه الفتنة الهائلة على قياسه الشخصي المركب من السويداء والتخمة والتهكم .

ولسنا من الذين ينكرون على الكاتب حق التهكم احيانًا اذ اننا نعتقد بصلاحية هذا الاسلوب ونعده من الظرائف الجدلية الفعالة التي يقاوم بهـا الكاتب كل شيء سخيف سقيم . اما تهكم كارليل فحاد اذا خف وفظ اذا اشتد وبينما نحن نطالع هـذا الكتاب لم نتمكن من اعادة الفكرة الى ما كنا نقرأه من نفثات فولتير فاننا نرى بين مؤلفين الواحد منهما لاتيني والآخر سكسوني مشابهة عظيمة من حيث اسلوب الكتابة السخري الذي استخدماه لمقـاتلة جيوش الفساد والظلم والخرافـة ولكن اين تهكم الاسكتلندي الكالح من تهكم الافرنسي الواضح . فهذا اشبه ببر كان وذاك بمرض عضال مزمن . هذا يهلك ما يلقاه عاجلاً وذاك يدخل جسم الفساد والخرافة فيحله ويلاشيه تدريجًا . تهكم كارليل خال من الذكاء الذي يزين تهكم فولتير . فكارليل كان اذا غضب يرعد ويمطر اما فولتير فكان يبتسم ابتسامة تكشف لنا عن انياب اسد يسير بهدوء مترفقًا في تيهه الى غايته المطلوبة .

مختارة من وادي الفريكة

الريحانيات مجموعة مقالات وخطب وشعر منثور • ووادي الفريكة هي المقالة الاولى من الجزء الاول الذي طبع ١٩١٠ • وقد نقلت الصحف والمجلات هذه المقالة مراراً لما فيها من صدق الوصف وحب الطبيعة والصور الادبية الفاتنة التي استوحاها الكاتب من قلب الوادي •

في صباح يوم من الايام التي تقف حائرة بين الخريف والشتاء لبّيت دعوة الوادي • خرجت من بيتي بمعطف مشمع واخذت اقفز عن الربى وادب من تحت الصخور حتى وصلت الى قلب الغاب • نزلت لاتفقد الوادي بعد ان اغتسل بسحابة الخريف الاولى • هبطت على عادتي لا ترويحاً للنفس كما يقال بل ابتغاء الالهام والفائدة : أجل انا اقصد الوادي كما يقصده الفلاح ولكن فأسي ومنجلي يختلفان شيئاً عن فأسه ومنجله واحمالنا ونحن عائدان تختلف كثيراً بعضها عن بعض • على ان حطب الغاب يفيد في هذه الايام اكثر من حطب الخيال والفلاح هو الفيلسوف الحقيقي • ولكن ذلك قلما يهمني • قد انحدرت الى الوادي ووقفت على صخر يشرف على النهر وتأملت فعل العواصف والانواء الليلة البارحة — تلك الليلة التي دخل اله الشتاء بعروسه الطبيعة • كيف لا ومياه النهر والسواقي حمراء كالدم •••• وقفت هنالك مبتهجاً فاحسست بان روحي انفصلت عن جسمي و طارت فوق الاشجار

البليلة وفوق الصخور الشهباء في الصيف ، السوداء بعد الامطار . طارت وطار معها ما تراكم على رأسي وقلبي من الافكار والخيالات والاماني . طارت مسرعة صامتة كما يطير السنونو والحسون في هذا الفصل . شعرت بان روح الوادي قد اتحدت فيّ وروحي قد اتحدت بالوادي . فانا اذن والوادي سواء : في نفسي ما فيه من الظلال والخيالات والكهوف . في نفسي ما فيه من الصخور الشامخة والمنحدرات الهائلة والسواقي الفائضة والانهر الجارية . في نفسي ما فيه من العصافير والجنادب والنسور ومن الهوام والذئاب ايضاً ايها القارئ البعيد القريب .

صعدت قليلا وجلست تحت خرنوبة غضة وتنفست متنشقاً هواء الاحراج المنعش فكاد يكون لنفسي صدى في حفيف الاوراق . في ظل هذه السكينة يكاد المرء يسمع خفقان قلبه . وعند توقلي في الصخر سمعت صوت رفرفة العصافير فالتفت الى جهة الصوت واذا بسرب كبير من السنونو فرّ من امامي ففكرت في نفسي قائلاً : لو كان للطير ان يقرأ الافكار لما كان هذا السرب يفرّ الآن من وجهي بل كان يجيئني مغرداً فاقبّله ويقبلني ويسير بعدئذ كل منا في سبيله . ولكن اخواني البشر لم يعوّدوا الطير مثل هذا والسنونو لم يقرأ شيئاً حتى اليوم مما اكتبه . الى الآن لا يعرفني . وهل بلام على ذلك والانسان نفسه لم يزل يعجز عن فهم ما انطوى عليه الانسان ؟

في الباب

وهذا ايضاً المقال الاول من الجزء الثاني من الريحانيات الذي طبع سنة ١٩١١ . وفي هذا المقال يكشف لك الكاتب عن امنيته في الحياة ، تلك الامنية التي اخلص لها الامين وجعلها دستوراً له حتى الممات .

لا المجد ولا الشهرة امنيتي القصوى . ولا الجاه ولا الثروة ولا السيادة ولا العظمة . وانما امنيتي الجوهرية الاولى هي ان اكون بسيطاً في اعمالي . صادقاً في اقوالي . مستقيماً في مبادئي وآرائي . فطرياً في تصرفي وسلوكي . حراً فيما احب وما اكره وبكلمة اخرى اود ان اكون دائماً نظيف الجسم نزيه العقل والقلب بعيداً عن التصلف والزخرف والعجب والمصانعة . بعيداً عن الجبن والخوف والتذبذب . بعيداً عن الخجل الذي يذل النفس ويميت الحقيقة . بعيداً عن الكذب والجريزة والمداهنة والرياء . عليّ ان اقتبل ما يقابلني من الصعوبات في مسالك الحياة باشاً جاداً ثابتاً صابراً متجلداً . عليّ ان اناهض الفساد والضلال في الناس والاّ أكره احداً من الناس . اود ان اعيش دون ان ابغض احداً . واحب دون ان اغار من احد . وارتفع دون ان ارفع على احد . وانقدم دون ان ادوس من هم دوني او احسد من هم فوقي . هذه هي سنتي وللغير ان يتخذوا لهم سنة توافقهم . للغير ان يسلكوا ذات المسلك اذا شاؤوا واستطاعوا .

ليس من شأني ان اتداخل في شؤونهم ولا ان ارشدهم منذراً او اعظهم متأمراً متهدداً . عليّ ان اعيش صادقاً مسالماً مستقيماً . وللناس ان يعيشوا كما يطيب لهم . لا احب ان انصح احداً متى كانت نصيحتي بنت فكرة زائلة لا بنت حقيقة دائمة . ولا ان انضم الى حزب من الاحزاب . (مراقبة) او جمعية من الجمعيات مهما كانت صبغاتها . ومهما تسامت غاياتها . ولا ان اساعد احداً لا يعمل في مساعدة نفسه . واذا كان فيّ مايلهم الناس الى الخير ويرفعهم درجة واحدة في سلم الرقي العقلي الروحي احب ان اظهره بالمثل والاشارة واللطف لا بالانذار والوعيد والتأمر . احب ان تشع حياتي ولا احبها ان تفرقع . احب ان تكون كاحد الكواكب السماوية . لا كسهم من الاسهم النارية .

بذور المزارعين

سننشر في كل فراغ بعض اقوال الريحاني المأثورة تحت العنوان الذي اختاره لها « بذور للزارعين » . هذا العنوان الذي يظهر حب امين للطبيعة وشغفه وتعلقه بها .

انت السالك يا من تطابق بين اقوالك واعمالك

الشعر والشعراء

يتبين لك في هـذا المقال المختار من الجزء الثالث من الريحانيات ، طبع ١٩٢٤ ، ان الكاتب طرق باباً واسعاً في النقد وتحدى قيود الدياجة والوزن في الشعر .

الشعراء اثنان شاعر قومه وزمانه . وشاعر العالم وكل زمان . الاول يندر في شعره ما يبقى شعراً اذا ترجم الى لغة اجنبيـة . والثاني عكس الاول . وقد يجيء في شعر هذا ما هو من طبقة شاعر قومه وزمانه . وقد تعلو صناعته على قريحته في حالات للنفس يغلب فيها المكتسب على الفطري . وقد يكون الشاعر الاول بعيد الاشارة علواً لا اتساعاً فينظر الى الاشياء والاكوان من ذروة سماؤها صافية ولكن افقها محدود صغير . كثير المضايق والسدود . فيرى اصول الاشياء وروؤسها ولا يرى مـا تشعب وامتد من اطرافها . وشعراء العرب ما عدا الفارض والمعري من هذه الطبقة لان في شعرهم تغلب الصناعة الشاعرية الحقيقية . فيجيء ما ينظمونه شعراً عربياً فقط لا شعراً على الاطلاق .

اما الفارض وابو العلاء فيكادان يعلوان على هذا . كل في طريقته . وما تقيدت النفس فيهما بظاهر الاشياء الزائـل اي بتقاليد القوم وروح الزمان . وقد يستغرب ذكري هذين الشاعرين كانهما صنوان وقد اختلفا طريقة ومذهباً . على انهما متشابهان عند من دقق النظر في شعرهما وحياتهما

تشابهاً جوهرياً جديراً بالاعتبار . ففي شعر الاثنين ما لا يختص بامة واحدة من الامم او بزمن من الازمنة . بل هو جامع شامل . سماؤه بشرية لا عربية . وزمانه لا هجري ولا مسيحي . وفي حياة الشاعرين حيرة وورع يتناوبهما الشك واليقين فيعلو العقل في « رهين المحبسين » على النفس وتعلو النفس في شاعر السالكين على كل معقول ومحسوس . ويجوز لنا ان نقول ان ابا العلاء من المتصوفين في بعض حالاته كما ان الفارض في بعض اطواره من الماديين . شعر ابي العلاء كالموشور صاف . ولكنه بارد . تنعكس فيه حقيقة الحياة فتتلون . فتحرق فتنير ما يعالجه من المواضيع . وشعر الفارض قبس من النفس نرى في لهيبه اشكال ازهار من الحب جميلة وطيور الفاظ تغرد حول عرش الاسرار .

وحقاً ما يقال ان الشعر من الشعور . ومن الشعور ما رق فسال . ودق فغمض . واشتد فاضطرم فاحرق فانار . ومن الشعور ما هو مكتسب ومنه ما هو فطري . فيغلب في الاول التصنع وفي الثاني الهوى او الهوس . وقد قال احد الفلاسفة : ان اول الهوس الشعر واحسن الشعر ما كان عن هوس وغرام . وعندي لا ينبغي ان يكون الشاعر . شاعر النفس . عاقلاً او فيلسوفاً . فالهوس او الهوى او النزعات الشديدة انما هي صوت النفس وتنهداتها فتشجي تارة وتطرب طوراً . وطوراً تزعج وتكرب . وفي كل حال ان نزعات النفس لهي ماء الشعر وغذاؤه وخمره . وكل شعر بدونها خاسئ بارد مشحوب اللون عليل . وفي هذه النزعات الشديدة لا يخضع الشاعر لشيء من اشياء العقل العادية السطحية فتظهر في كل اقواله ونغماته في مظهر طيه الدعوى التي يظنها الشاعر من لوازم الصناعة . ومن واجبات النبوغ . وقد تشتد هذه النزعة في بعضهم حتى تصبح نوعاً من الجنون وتتشابه باطناً في من اختلفوا

ظاهراً وشكلاً — فهوس الفارض بالاسرار يتغزل بغوامضها . مثل هوس ابي العلاء بالعقليات وتغزله بالفناء والاضمحلال . ومثل ورع ابي العتاهية حتى اصبح الورع في شعره نوعاً من الخبل . ولكن المبالغة طبيعة في الشاعر لان شعوره مجموع شعور الناس . وان جاز لنا ان نشبه المجتمع الانساني بجسم بشري يصح ان نشبه الشاعر بالجهاز العصبي لهذا الجسم المعنوي الحي . واكثر الشعراء من هذه الطبقة اي انهم شعراء قومهم وزمانهم .

اما الشاعر الكبير شاعر العالم وكل زمان فهو قلب العالم وعقله . فمن رقت شعوره هام كما يقال على وجهه او بالحري عام على وجه الاشياء فيتلهى بلطف اشكالها الظاهرة . ومن اشتدت شعوره غاص في قعر البحار فجاءنا بشيء من لؤلؤها ومرجانها . ومن دقت شعوره غمضت معانيه فشق في الظلمات حتى ينتهي عند انوار هي من النفس والفكر بمكان . لكل حقيقة شعاع اسود خفي . والشاعر الصميم من تمشى في ظلال الحقيقة فتتبع اشعتها حتى النهاية فيكتشف حقائق اخرى هي من حقائق الحياة كالنور من الشمس . ولا اظن ان هذه المزايا كلها اجتمعت لشاعر واحد من شعراء العرب .

قل ما رق من الشعور للمتنبي وندر ما دق . اجل قد يتعمد ابو الطيب الغموض فيجيئنا بالغاز باردة . وفي شعر ابي العلاء لا نسمع للقلب صوتاً الا ما كان تكلفاً واجتهاداً . وشعر الفارض غابة مدلهمة فيها عرائس حاملات شموعاً ضئيلة تركض امامنا لتهدينا الى جنات النعيم . ولكن الشموع تنطفئ في وسط الغاب والعرائس ينشدن ويختفين في الظلمات . وهذا اجمل ما جاء في الشعر من وصف اسرار الحب والوهية الاسرار . اما هذه المزايا الثلاث التي تقاسمها ثلاثة من شعرائنا فتجتمع كلها لشاعر اليونان هو ميروس ولشاعر الانكليز شكسبير .

النجوى

هي صلاته التي كان يناجي بها ربه وكنت اشهده يرددها مساء كل يوم في بيتنا بالفريكة فيقف فى الجناح الشرقي من شرفة البيت متجهاً صوب صنين والوادي فيهيم في بعض عباراتها بخشوع ويجهر في بعضها الاخر بصوت أجش مجلجل كانما يحاكي فيه صوت العزة الالهية .

والنجوى مثال من شعره المنثور وقد ظهرت في اول الجزء الرابع من الريحانيات طبع بيروت ١٩٢٤

ياذا الجلال الازلي ، الحفني بشيء من جلالك .

ياذا النور الدائم ، امددني بقبس من نورك .

ياذا القوة غير المتناهية ، ابعث منها في قواي .

انما انا مبدأ الحياة الازلية ، وعين الحب والقوة ، واني حي فيك ، عليم بنجاويك .

○○○

انت الحياة باجمعها ، اولاً وآخراً ، واني لاحيا بك .

انما انا مصدر الادراك البشري ،
وسأزيدك ادراكاً بانك جزءٌ مني .

٠٠٠

ساعدني اللهمّ لاجمع قواي الروحيـة ، والعقلية ،
والجسدية ، في سبيل الحق والحب والحكمة .

اني ايها الانسان مصيخ اليك ، مطلق يديك ، منعم عليك .

٠٠٠

يا ايها الينبوع السرمدي ،
المنبعثة منه انوار الحب ، المتدفقة منه مياه الحياة والعافية ،
اني افتح لك عقلي وقلبي ، وابسط امامك روحي ، فلا تحرمني
فيض مكارمك ، ولا تبعدني عن ينابيعك .

ان ينابيعي لفي النجوم ، وفي مـا يربط النجوم بعضها
ببعض . وفي ماينشأ عن ذا الارتباط من قوة وعافية .
ان ينابيعي لفي الحقول ، وفي ماينشأ فيها من الازهار . وفي
ما يبعث من الازهار اريج الحب والجمال .

وهي كلها امام عينيك ، وطوع يديك يد العقل الكشاف ، ويد الروح الخالدة .

٠٠٠

انك الهي ، ولا آله لي الا ك .

اني نبض الحياة فيك ، وروح الحب فيك ، ونور الحكمة فيك كن عليها اميناً ، فهي الالوهية ديناً ويقيناً .

ا .

بذور المزارعين

لنخدم الله بالاعمال . ولنسبحه بالاعمال .

.....

ان الامين وان كان كنوداً لخير من المدغل وان كان هجوداً .

نبذة من مقدمة «ملوك العرب»

سمعت الكثير من الادباء يصارحون ان مقدمة « ملوك العرب » هي قطعة من الادب العربي الخالد . وبناء على ذلك قد اخترنا لاطلاعكم بعضها هنا .

اما « ملوك العرب » فيحتوي على جزئين . الاول منه مزين بالرسوم ومقسوم الى اربعة اقسام : الملك حسين بن علي . الامام يحيى بن حميد الدين . السيد الادريسي . والحجر والنواحي التسع المحمية . وهو كتاب رحلة ومشاهدات قام بها الكاتب في الجزيرة العربية سنة ١٩٢٢ . وقد طبع هذا الكتاب مرتين ١٩٢٤ — ١٩٢٩ .

كنت في الثانية عشرة من عمري عندما سافرت المرة الاولى الى الولايات المتحدة . فلم اكن اعرف غير الشيء اليسير من اللغتين العربية والافرنسية ، وما كان في ذهني من العرب واخبارهم غير ما كانت تسمعه الامهات في لبنان صغارهن . هس ، جا البدوي ! والبدوي والاعرابي واحد اذا رامت الام « بعبعاً » تخوف به اولادها .

هجرت وطني وفي صدري الخوف ممن اتكلم لغتهم والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم . والبغض والخوف هما توأما الجهل .

اما الامة الافرنسية فما كنت اعرف من امم الارض سواها . واما اميركه فقد كنت في ما عرفته منها بعيداً عن الام وعن المدرسة .

تناولت الكأس من يد الوجود وقد ملأها الشعب الاميركي بنفسه . ومع ذلك فلم تخلُ مما امتازت به الكأسان الاوليان . رشفت في نيويورك الجام تلو الجام من العلوم المشوبة وفيها اشياء من الجهل المتلألىء وما يمازجه من الخوف والاعجاب .

غدوت بعد عشر سنين في اميركه معجباً بنشاط الشعب الاميركي وبحريته في الفكر والقول والعمل ، خائفاً من نتيجة الجهاد المادي هناك ومن التكالب في سبيل الحياة الدنيا . وما كان خوفي على الامة الاميركية وانا في ذاك الحين ، في عين نفسي ، قطب كلما اهتممت له ونقطة الدائرة في كل ما ملت اليه . خفت ان اغلب في ذاك الجهاد ، اشفقت على نفسي من ذاك التكالب .

ونسيت فرنسه الا في آدابها ، تلك الآداب التي زادتني ضعفاً وتردداً في مضمار الحياة . صرفتني عن حقائق الوجود المادية ، وزينت لي في الفنون الجميلة الحقائق المعنوية . صرت في نيويورك كئيباً يحمل كتاباً ، وغاوياً من غواة الفنون يمشي في الجنائن العمومية سبهللاً ، فانفتحت امامي ابواب من العلم متعددة واتسع مجال الاضطراب والغرور .

ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي فوجدته في امور كثيرة ، اخلاقية واجتماعية ، ارقى من الشعب الاميركي ، او احب الى من كان مثلي . فكان لي في ذا العلم عون على مقاومة تيار الاقتباس والتأمرك ، فلم اتخلق مثل سواي من السوريين هناك باخلاق الاميركيين كلها . والفضل في ذلك عليّ هو لفيلسوفهم الاكبر امرسون الذي كان دليلي الاول الى محاسن الانكليز في ما كتبه عنهم وعن سجاياهم .

وقد عرّفني امرسون الى كرليل ، و كان كرليل اول من عاد بي من وراء البحار الى بلاد العرب . اجل ، وقد يستغرب قولي اني عرفت بواسطة الكاتب الانكليزي الكبير سيد العرب الاكبر النبي محمداً فاحسست لاول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت اميل الى الاستزادة من اخبارهم .

ثم في غزواتي للكتب الانكليزية غنمت كتاباً استوقفني ظاهره الفخم وراقتني الصور فيه . وما كان العنوان لينبئني بشيء اكره او احب . قرأت كتاب الالهمبرا فادركت ان المؤلف يريد بالعنوان الحمراء ، وعرفت ان الحمراء هي لؤلؤة تاج العرب في الاندلس .

لله انت ايتها البلاد العربية التي لم يشأ الله ان اجهلك حياتي كلها ، فبعث اليّ ، وانا بعيد عنك ، انكليزياً يعرفني الى رسولك واميركياً يصف لي محاسن ابنائك .

بعد ان قرأت كتاب الحمراء مازج عقليتي الاميركية الافرنسية الانكليزية شيء من الخيال الشرقي ، فصرت احلم بذاك المجد الماضي احلاماً تمثلني حياً فيه بل تمثله حياً امامي .

عدت الى بلادي كئيباً يحمل كتاباً ، ويرغب في ان يكون الكتاب مئة كتاب و كتاب . و كنت لا اعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير ، فتغلغلت في سراديبها دون ان ارثي لحالي . وبين انا اتخبط في دياجي اللغة عثرت على كتاب شعر انساني الكسائي وسيبويه و كل من علم حرفاً في البصرة والكوفة .

جمعني الله سبحانه وتعالى بابي العلاء المعري بعد ان هداني بواسطة الفيلسوف الانكليزي الى الرسول العربي . قرأت اللزوميات معجباً بها ، ثم

قرأتها مترنحاً ورحت افاخر باني من الامة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحر ، الجسور ، الحكيم .

٠٠٠

عدت الى امير كه استصحب صاحب اللزوميات، و كنت ترجمانه هناك . فساقتني المهنة الى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية ، فاجتمعت فيها بعدد من المستشرقين الذين صوروا لي الحياة رحلة في الارض دائمة ، وصوروا الارض بادية عربية نبغ فيها محمد بن عبد الله القرشي وامرؤ القيس الكندي ، الشعر والنبوة والدهناء ، والواحات في بحار من الرمال ، والنخيل في الواحات يهمس في اغصانها النسيم ، ويهز جذوعها السموم ، وصوت الساقية هي تغني للارض المنعمة في ظلال النخيل ، وبنية البدو تغني لجمل الساقية — وماذا في نويورك ؟

ماذا في نويورك غير الضوضاء والعناء والعياء والبلاء ؟

هذا الرحالة بلغراف وترجمانه اللبناني الذي صار بعدئذٍ بطريركاً عظيماً يحدثاني عن شُتمر والقصيم والعارض والرياض . وذاك المستعرب بُركهارت وقد دخل الى مكة حاجاً ، مسلماً صادقاً نقياً . وهذا العلامة بُرتن يقص قصة عجيبة بطلها بزّار من سمرقند قد حمل الكيس — تفتا هندي شاش حرير يا بنات! ليكشف له اسرار الحريم . ثم ركب العيس ، و كان دليله ابليس ، فاقتفى اثر بركهارت لغرض في النفس ، ونظم قصيدة كفرية كفرّ بها عن كل ماآتيه في التلبيس .

وهذا خليل الذي راح يهول بنصرانيته في وجه البدو ، فقاسى في رحلته الاهوال ، ونجا غير مرة من مخالب الاضمحلال . اضطهد في بريدة ، وطرد

من عنيزة ، وسُلب وضرب ، وترك في النفود يهيم على وجهه وليس في جيبه غير خمسة ريالات ، وليس في قلبه ذرة من التدليس والتلبيس . الدرويش خليل ، كأنه كان يهوى الاخطار فيجذبها اليه . خليل النصراني ، جاء بتعصب اسكتلندي يُثير في العرب التعصب الاسلامي . خليل النصراني الكافر ! قطوا رأسه بالسيف ! ولكن الله اخرجه من شبه الجزيرة حيًا ليكتب كتابًا لا يموت .

وكل هؤلاء من الاجانب يسيحون في بلاد كانت قديمًا ولا شك بلاد اجدادي ، ويخاطرون بانفسهم فيها حبًا بالعلم ، فيكشفون منه المخبأ ، ويجلون المصدأ ، ويقربون البعيد ، ويغربون في اللذيذ المفيد . وانا في نويورك كئيب يحمل كتابًا ، ويطرق للمحرر الانكليزي المتغطرس بابًا . اديب شعره طويل ، وصدره عليل ، يسرف من ذهب الحياة في تسويد المقالات . آلة كاتبة ، يرقص حولها الهم والامل متخاصرين . اف لها من زوجة نقاقة ، ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة ، واية عبودية اشد من عبودية الآلة الكاتبة واخبث . طلقتها ثلاثًا ، وعدت الى بلادي اعد العدة لرحلة تبعدني عنها وعن الكتب والمجلات . والادباء والاديبات .

في الطريق الى صنعاء

يحس المطالع وهو يقرأ هذا الفصل المقتبس من الجزء الاول من « ملوك العرب » انه في بلاد العجائب او كأنه يطالع قصة من الف ليلة وليلة . وفيه ينجلي لك شيء من مقدرة الكاتب في الوصف والتهكم فترى بعض الصور التي تزخر بها هذه الرحلة ، كرمي الفخار على الرجال وهم يحملون ، واطلاق البنادق والقطور ، ومجالس القات وغيرها .

ركبنا قبل انبلاج الفجر سيارة صغيرة وخرجنا من لحج نبغي الدكيم التي كانت يومئذ حدود السلطنة اللحجية شمالاً وفيها حامية انكليزية من الهنود . وكانت الحملة قد سبقتنا اليها ومعها الحرس يركبون الهجن ، ورسول القاضي عبد الله العرشي الى امير الجيش ، وبعض المسافرين الذين احبوا ان يرافقونا .

وكان في الدكيم ايضاً عشرة جنود من جيش سلطان الحواشب علي بن مانع ، جاؤوا بامر منه يستقبلوننا ويصحبوننا في بلادهم . والحوشبي لا يثقل نفسه بالعدة والثياب . ليس في العالم جندي اخف منه حملاً ، وأشد منه بأساً . ولا اظن ان في جنود الامم المتمدنة اجساماً مثل اجسام العرب في اليمن الاسفل . هاك الحوشبي مثلاً وجلده الاسود او الاسمر يلمع في نور الشمس كالنحاس المصقول ، وعضلاته الشديدة المفتولة تتحرك كالاجزاء

الدقيقة في آلة كهربائية ، وقامته المتناسقة الاعضاء تُستر بالعري فيكتفي بالفوطة يشدها على وسطه ليستر بها عورته — هوذا معرض محاسن من صنع الله تمتع به ناظريك اذ يثب صاحبه ، والبندقية على كتفه والامان في قلبه ، كالغزال الشارد امامك .

من هؤلاء الحواشب ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة مشى الى جنبي وهو ينظر اليّ من حين الى حين كأنه يبغي الحديث . سرنا في وادي دُبن ، وهو طويل يتصل شمالاً بمدينة اب ، والشمس حتى في نيسان تشوي الضب . وكنا بدأنا في التصعيد ، فتراءى لنا خيال اسحم على الافق البعيد ، فوق قنن من الجبال كثيرة . فهتف الجندي الصغير قائلاً : هذا وَروَه — جبل وروه — تراه من عدن وستراه غداً من ماويه . لم اتأكد القسم الاول من مقاله لاني لم اهتم وانا في عدن بالجبال . ولكني تأكدت المبالغة في القسم الثاني منه . رافقنا وروه يوماً واحداً وغاب عن الابصار . وكذلك الجندي الصغير الذي تأسفت على فراقه . كان يحدثني وهو ينقل البندق لثقله من كتف الى كتف ، ويمشي على بؤس حاله سامد الرأس .

— العفو يا امير حضرتك من الشام ؟ اجبته بالايجاب .

— وهل راضية الشام بالسلطان ؟ اخبرته بان حكم السلطان فيها قد انتهى ، فما سره الخبر ، فقال : السلطان رجل طيب يا امير ، ما فيه شر .

سألته : وهل تحب الاتراك ؟ فهز رأسه وأشار بعينيه ان نعم ثم قال : سعيد باشا رجل طيب . كنا في ايامه مستريحين ، وكانت الظلط كثيرة . اما الآن يا امير فلا سعيد ولا ظلط . انظر الى ذاك الجبل . وراءه الصبّيحة أشر العرب . وهم دائماً يعتدون علينا نحن الحواشب المحافظين

على الامن . الحوشبي فقير ولكنه منيع ، ورفع بندقيته مشيراً اليها ، ثم قال: سلامة القوافل في يده .

اما الصبيحة ياحضرة الامير فهم يحاربوننا لانهم لايحبون الامن . ونحن نهجر حقولنا ومواشينا ورزقنا لنحمل هذا البندق ، لنوجد في البلاد . الامن للعباد ، وحضرة الامير — العفو — لا يقدر ان يسافر وحده ، لا والله . بنادقنا وحياتنا ملك السلطان ، وهي الآن تحت امر الامير . هل انتم تحكمون في بلادكم ؟

قلت له ان اسمي امين لا امير ، واني محكوم مثلكم لا حاكم .

— ومن يحكمك يا حضرة الكامل ؟

— يحكمني الان الانكليز . هل تحب الانكليز ؟

— يقول السلطان ان الانكليز ما فيهم شر .

— وهل الحواشب يحبون سلطانهم ؟

— اي والله نحبه ، علي بن مانع رجل طيب ، مافيه شر . ولكن من هو الحوشبي وما هي اهميته ؟ البندق على كتفه ، والموت قدامه ، ولا يعرف في الليل اذا كانت تشرق عليه الشمس .

سرنا في الوادي وادي دُبن والجبال حولنا وامامنا تمنع عنا الهواء ولا تقينا حر الشمس ، فوصلنا الظهر الى أُخنُدق وهي قرية خيامها من القش والغرف ، فيها سمسَرة للقوافل والمسافرين . فاسترحنا هناك ساعة الغداء ، وارسلنا هجاناً يحمل منا كلمة سلام الى سمو السلطان علي وينبئه بقدومنا .

استأنفنا السير بعد الظهر فالتقينا في نصف الطريق بين أُخندُق والمسيمير بفرقة اخرى من جيش السلطان ، يتقدمها ابنه الصغير راكباً جواداً رائعاً .

جاؤوا من قبله يلاقوننا ، فدوت في ذاك الوادي اصوات البنادق ترحيباً . اطلقوا ثلاث طلقات فاجبناهم بمثلها ، ورحنا وابن السلطان يتقدمنا ، ورجله الحافية في الركاب ، ويده اليمنى على عمامته الكبيرة الرفيعة ، الطويلة الذؤابة الكثيرة الالوان كأنها عمامة العيد ، ترقص فرحاً على رأسه ، وهو على ظهر الجواد اثبت منها .

وصلنا عند الغروب الى قصر السلطان في المسيمير ، وهي قرية بيوتها من الحجر واللبن قائمة على ربوة خضراء ، ينساب عند سفحها في وادي دُبن سلسبيل فضي ، الى جنبيه الحقول المزروعة وهي تتموج حول اكواخ من القش . ان الجمال الذي يجلبب المكان لينبىء بالسلم القروي ولكنه مفقود . فلا في سلطنة ابن مانع وجدناه ولا في قلبه . ومن المسؤول ؟ سيجيب السلطان على سؤالنا . هذه جنوده تطلق البنادق ثانية ولاء لا عداء ، تأهيلاً لا تهويلاً .

دخلنا الى بيت في القصر أعد للضيوف . وبعد قليل جاء سموه للسلام ، يتبعه الخدم وبين ايديهم اطباق الطعام : خبز بسمن وسكر ، ومرق وبرغل ولحم وعسل . فجلسنا في حلقة على الارض ننطح بايدينا الزاد . وكأن السلطان ، وهو ينظر الينا ، أعجب بسفي البرغل سفاً فقال : انت منا يا امين ! انت والله منا ...

كان السلطان علي نحيلاً كالخيال ، عصبي المزاج ، حاد الطبع ، حر الكلمة . حدثنا بعد العشاء عن احواله قال : انا بين اربعة يا امين ، والاربعة يقصرون حياتي هذا ابني وهذه لحيتي البيضاء . هو ابني الوحيد يا امين ، ولكني اذبحه والله ولا اسلمه رهينة لاحد اما الاربعة فالواحد منهم

فوق(١) يشهر علينا الحرب لاننا هادئون ساكتون لا نعتدي على احد . والاخر تحت(٢) يغزونا لظنه اننا اغنياء وان خزنة الانكليز تحت امرنا . والثالث هناك(٣) لا يخاف الله . والرابع(٤) عدونا اليوم ، صديقنا غداً ، لا نعرف والله متى ينقلب ولماذا ينقلب ! وعلينا ان نحاربهم كلهم . واننا والله نحاربهم يا امين ، ونحاربهم حتى نفنيهم او يفنونا ... لا والله . لا نأخذ من القوافل الا مجيدياً واحداً على كل جمل . والامام يأخذ مجيديين وصاحب لحج يأخذ ثلاثة .

— وكم تأخذون مشاهرة من الانكليز !

نظر السلطان علي الميّ ويده على لحيته ، وثلاثة اصابع من الاخرى مرفوعة ، وقال ثلاثمئة روبية وهي والله غير كاملة . يدفعونها لنا كل ستة اشهر ولا يدفعون غير الف وستمئة روبية . احسبها . وعلينا ان نؤمن للقوافل الطرق ، وان نطعم اهلنا ورجالنا ، وعندنا قبائل يذكروننا حين يجوعون وينسوننا حين يشبعون . الانكليز ضرورة يا امين .

قلت : ولو دفع لك الامام مشاهرة مثل الانكليز اتتركهم وتواليه ؟

فاجاب على الفور : لا والله . انا متعاهد والانكليز فلا اخلف . وسابقى صديقهم دائماً . اي والله . الانكليز يا امين يعقلون . عندهم حكمة كما عندهم مال . نعم هم غير مسلمين ، والمسلمون اخوان . ولكن القلب يعرف الاخ يا امين والسياسة لا تعرف غير الضرورة .

ان الحواشب مثل الشوافع في اليمن وعسير يكرهون الامام ، لا لانه

---

(١) امام صنعاء الامام يحيى (٢) عرب الصبيحة (٣) عرب الضالع جيران الحواشب شرقاً (٤) سلطان لحج .

عدوهم في الحرب فقط اي في ضرورات السياسة ، بل لانه عدوهم كذلك في الدين ، وفي المذهب . هو زيدي شيعي ، وهم سنيون .

ودعنا السلطان تلك الليلة شاكرين له حسن الحفاوة والضيافة واعلمناه اننا سننهض باكراً للرحيل ، فلا نكلفه مشقة القيام مثلنا ليودعنا ثانياً . وفهمنا منه انه قبل بذلك . الا اننا في صباح اليوم التالي ، بينا كان المكارون والخدم يحملون دهشنا بل ذعرنا لحادث فيه منتهى الغرابة . كنا مقيمين في جناح من القصر قبالة الجناح الذي يسكنه الحريم ، وبيننا الحوش الذي كانت فيه الركائب والخدم ، فسمعنا بغتة ان اناء من الفخار تكسر فيه ، فظننا انه وقع من السطح . ولكن اناء اخر تبعه — رأيناه يرمى من النافذة ولم نرَ الرامي — فاصاب احد العساكر فرفع صوته شاكياً . ثم جفنة ، ثم قطعة اخرى من الفخار تحطمت بين اقدام البغال ، فعلت الضجة في الحوش وسمعنا رجالنا يصيحون : هم يطردوننا ، عجلوا يا ناس ، هذه ضيافة ابن مانع ، عجلوا بالرحيل .

خرجت وقسطنطين مسرعين فركبنا وسرنا نتقدم الحملة . نزلنا من الجبل الى السهل فالنهر وقلبنا — اقول قلبي ولا اتهم رفيقي — يختلج خفقاً ورعباً . ظننا اننا بعدنا عن الخطر وعن ضيافة صاحب السمو الحوشبي عند ما وصلنا الى النهر . ولكننا قبل ان اجتزناه سمعنا اصواتاً تنادي : قفوا ، قفوا . فلم نقف ، فاطلقوا اذ ذاك البنادق طلقات متعددة ، فقلت لرفيقي : هوذا الخطر الذي نتوقعه . دنت الساعة يا قسطنطين ، قف واشهر سلاحك .

بعد قليل قرب القوم منا فاذا هم خدم السلطان يحملون على رؤوسهم الاطباق ومعهم بضعة عساكر . جاؤونا بالفطور ! اي بالله . كيف نسافر

قبل ان نفطر ؟ و كيف نسافر قبل ان نودع السلطان الذي نهض باكراً للوداع ؟

سألناهم عن الفخار الذي رمونا به ، فاخبرونا ان السلطانة ، وهي في خدرها رأتنا من على السطح في اهبة الرحيل ، فنهضت كذلك باكراً من اجلنا . فارادت تنبيه الخدم النائمين في الطابق الاسفل ولم تشأ ان تسمعنا صوتها او ترينا من النافذة وجهها فرمتهم بالفخار تستفيقهم لينهضوا ويهيئوا لنا الطعام . الضيوف ، انهضوا للضيوف ، والحقوهم بالفطور ، واطلقوا الرصاص اذا كانوا لا يقفون .

اكثر الله ايتها السلطانة من فخّارك ، وجعلنا السنة فخارك . انك في الضيافة شاعرة الاقران ، وفي البلاد العربية فريدة الزمان . كيف لا وانت السيف في اكرام الضيف . تضربين من اجلنا الكسل ، وتلحقيننا بالعسل .

تروّعين ايتها الحوشبية الالمعية ولا تجوعين . قد كنت حديثنا وموضوع اعجابنا حتى في بلاد الزيود ، التي تنسي المرء الحبيب والمعبود . وقد تنسي الغريبة الجديدة ، غرائب عديدة ، كما حدثت في ماويه اول بلد من بلدان الزيود (١) شمالي عدن .

دخلناها في اصيل ذاك النهار وهي مثل المسيمير مختبئة في الجبل وراء الوادي الذي اجتزناه . فشنف اذاننا لما كنا مصعدين اليها صوت كان وقعه جميلاً في ذاك الوادي الموحش وفي تلك الساعة . فاستأنسنا به ايما استئناس . كأننا عند حدود الامام عدنا الى المدينة والنظام . ولما بلغنا رأس العقبة رأينا على سطح من السطوح صاحب ذاك الصوت ، وهو جندي بيده البرزان

(١) الزيود ينتسبون الى زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي ابن ابي طالب

(البوق) ينفخ فيه مرحباً بنا باسم امير الجيش .

و كانت فاتحة الالطاف . فلما دنونا من القصر سمعنا الموسيقى العسكرية تعزف نشيد اليمن الوطني ورأينا فرقة من الجنود النظامية مصطفة خارج السور لاستقبالنا وعلى رأسها ضابط تركي، فترجلنا نرد السلام، ودخلنا البوابة الى الحوش بين صفوف من العساكر المسترسلي الشعور ، اللابسي القمصان والعمائم المصبوغة بالنيل ، المسلحين بالبنادق والجنبيات . وعندما وصلنا الى البـاب يتقدمنا كاتب سر الامير واثنان من رجاله ، اوقفنا الحارس هناك ونادى بكلمة حارساً آخر داخل القصر فجاء الجواب موءذناً بالدخول .

دخلنا و كانت بداية الرعب والكرب ، صعدنا في درج لولبي مظلم ، ذكرتني درجاته بدرجات الهرم الكبير ، كل واحدة منها دكة ، وعلى كل دكة واحد او اثنان من ذوي الشعور الطويلة ، والثياب المنيلة ، التي تفوح منها رائحة النيل الطري السائل كذلك على اجسامهم (١) كنت وانا اتلمس طريقاً اتمثل القلعة بل السجن في ذاك القصر واتصور نفسي اسيراً فيه ، فجاء الاضطراب مع التقزز يفسد علينا بهجة الاستقبال العسكري ، وماهي الا فاتحة الكروب ، فعندما وصلنا الى الطابق الاخير اوقفنا الحرس ثانية امـام باب صغير ، ثم دخلنا فاذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة الا واحدة منها ،

---

(١) هم يغمسون ثيابهم بالنيل ويلبسونها قبل ان تنشف ليسيل الصباغ على اجسامهم ويدخلها فيسد المسام من الجلد ويقيهم حسب اعتقادهم من البرد . وقد قيل لنا ان عساكر الامام وكثيرين من اهل اليمن يتنيلون لا اتقاء للبرد بل حداداً على الحسين . على ان الوهم في هذه العادة اصبح من التقليد كما يظهر لان السادة وهم اولى بالحداد لا ينيلون ثيابهم .

وهواؤها وقد امتزج بالدخان كثيف فاسد ، وارضها مفروشة بالقش والحشيش ، والى جانب الاربعة الحيطان عمائم بيضاء كبيرة ، اصحابها جالسون على الارض صفوفاً ملزوزة ، وكلهم في تلك الساعة يمضغون القات بل يخزنون (١) وفي الزاوية عند منضدة صغيرة ، الى جنبها مداعة ، بين اكمة من الاوراق ورزمة من القات ، رجل صغير المنكب والعمامة حاد النظر واللسان ، ناصع الجبين والبيان ، قدمنا اليه كاتب الاسرار ، فعرفنا انه السيد الامجد علي بن الوزير امير جيش الامام في لواء تعز .

صافحناه وهو جالس كأنه احد ملوك اليمن في الزمن الغابر السعيد ، فاشار الى فتر من السجادة حشرنا فيه بين شيخين هائلين ، وكان كل من اولئك الاجلاء المحترمين ينظر الينا شزراً كأنه يلتمس لنفسه عذراً من مجرد النظر . وما اظن اننا ظفرنا بشعاع من العطف في تلك العيون ولا فزنا بنظرة واحدة فيها شيء من الارتياح او التساهل .

بعد ان سلمنا على الامير قدمنا له كتاباً من القاضي عبدالله العرشي وفيه يعرفه اما خطأ واما تلطفاً ، الى السيد (٢) امين الريحاني ، فظنني حضرته مسلماً من اشراف المسلمين واراد ان يعرف الى اي الفرعين انتسب ، فسألني قائلا : هل انت حسني او حسيني ؟

---

(١) ساعة القات عند اهل اليمن مثل ساعة الشاي عند الانكليز . ولكن القات غير الشاي . القات حشيشهم وافيونهم والمسكر عندهم وهم يدمنونه ادمان الاوروبيين الخمر .

(٢) لا يدعى سيداً في اليمن غير من كان من السلالة النبوية . وليس هناك غير طبقتين من الناس ، السادة وهم الذين ينتسبون الى الحسن او الى الحسين ، والعرب وهم الفلاحون البدو منهم والحضر .

وقع السؤال عليّ كالصاعقة ، فبلبل الخاطر مني لاول وهلة وعقل اللسان ، فجالت في ذهني بل جرت كمجرى البرق صور كلها سوداء تنذر بالبلاء . أفلم ينذرنا الانكليز باخطر على المسيحيين ؟ افلم يحذرنا عرب عدن ولحج من الزبود المتعصبين ؟ وها نحن في مجلس اميرهم وعلمائهم ، وفي قلعة ظلماتها كظلمات السجن او اشد ، وروائحها مثل نظرات اصحاب العمائم بل احدّ ، ولا نزال والحمد لله في بداية الرحلة ، وهل انت حسني او حسيني ؟

جاوب يا فتى . هل تكذب على الامير فتتنسب ، وما الحسن وما الحسين في مثل تلك الساعة ؟ اذكر اني في خمس لحظات غيرت ديني خمس مرات ، فكنت انتقل كالبرق من الحسن ، الى مارون ، الى الحسين ، الى دروين . اما اذا اكتشف الامير بعدئذٍ حقيقة دينك — اصدقه بالخبر يا رجل ولكن — هل تعلن امام هذا الجمع الزبدي الرهيب مارونيتك او مسيحيتك او دروزيتك ، قديوقفونك فيأسرونك ، يرجعونك الى حيث جئت ، هذا اخف ما في البلية ومن جهة اخرى اشدها .

جالت هذه الصور والسؤالات في نفسي ، جرت مجرى الكهرباء ، وانا اثناء ذلك اسير خوف اشد من خوفي ساعة اطلق الحواشب الرصاص ليوقفونا للفطور . وما خفت على حياتي خوفي من تعرقل مسعاي — من الفشل ، من الرجوع الى عدن مدحوراً مذموماً . ولكنه سبحانه ، بعد ان غيرت فكري خمس مرات في خمس لحظات ، فتح علي فقلت مجيباً : انا عربي يا حضرة الامير ، احترم كل المذاهب الاسلامية ، واحب كل العرب ، واتمثل دائماً في مثل هذا الموقف بقول الشاعر :

ولكل ربع من ربوعك حرمة وهوى تغلغل في صميم فؤادي

اظن ان الامير استحسن الجواب او انه احسن امام العلماء المداراة . وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجل بش لقدومنا بشاشة الصديق فلمسنا القلب منه في سلامه وتبادلنا واياه الثقة والولاء . فقال يعقب على جوابي مخاطباً الامير : حضرته من سادات لبنان .

فبدت منه ، بارك الله فيه ، شارة القبول والاقتناع وغير الحديث دون ان يبعد كثيراً عن الدين . بدأ الامير علي وهو فصيح اللسان بخطبة رأسها النبي والاسلام وذيلها اولئك الذين يفسدون بالبدع الدين . يتقربون حباً بالمال او السيادة من الافرنج ويدنسون الشرف النبوي بالنياشين الانكليزية . يوالون الكفار ويفتحون لهم حتى ابواب الحرمين ... الى ان قال : الايمان بالله رأس الفلاح والصلاح ، والجهاد في سبيل الله واجب على كل مسلم سلم ايمانه . وفي سبيل من يجاهد الملك حسين واولاده ؟ في سبيل الله؟ استغفر الله .

فتصدى قسطنطين للدفاع عن الملك وقلت انا كلمة اثبت ما قال الرفيق في ما يختص برفضه المعاهدة مع الانكليز . ثم قلت وانا اتوق الى الهواء : قد يريد الامير ان يصلي المغرب . فاذن لنا بالانصراف وامر كاتب سره ورجاله ان يصحبونا الى المضيف ويعتنوا بامرنا . صافحناه مودعين فلم يقف لنا ولا وقف احد من العلماء . في مجالس القات تقل الترهات .

في ظل الشراع

الجزء الثاني من « ملوك العرب » يحتوي ايضاً على رسوم واربعة اقسام : عبد العزيز آل فيصل آل سعود سلطان نجد . آل صباح شيوخ الكويت . آل خليفه شيوخ البحرين . والملك فيصل والعراق . وقد طبع مرتين سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٩ .

و « في ظل الشراع » كتبه المؤلف وهو مسافر من البحرين الى العقير في الحساء . وانك لتشعر عند اطلاعك على هذا الفصل من «ملوك العرب» بشوق الى السفر بالجلبوت ولو مرة واحدة في حياتك . « شلنا وتوكلنا على الله » .

من حسنات الاسفار تنوع اسبابها وطرقها . وان الابطاء في القديم منها أحب الى السائح من الابطاء في الحديث الذي اخترع ليطارد الريح فينهب كما يقال المسافات . ما الفائدة اذاً من بخار لا يحسن النهب ؟ ابحرت من عدن ووجهتي ابن سعود فاجتزت اولاً بحر الهند في باخرة كبيرة فخمة الرياش معتدلة في سيرها . ثم خليج العجم ، فصغرت الباخرة ، وبخست العدة ، وطالت علينا المسافة والايام . ثم قطعت فيافي العراق بين البصرة وبغداد في قطار مخلع مرجرج — هو أثر من آثار الحرب — لا شك ان قطار الشحن في اميركة اسرع منه ثم عدت من بغداد في مركب من مراكب دجلة وقد آليت على نفسي الا اكون غير شرقي كسول فلا اعد الساعات ولا احاسب البخار والآلات . فكانت السفرة لذلك جميلة ، قصرت وان تعددت ايامها . ثم في

رجوعي من البصرة الى البحرين خبرت في البواخر ابطأها سيراً فقلت : تبارکت الاقدار في الاسفار . هي تبدّل في الاسباب التي تزداد ابطاء كلما قربنا من محجتنا ، فنتمرن اثناء ذلك على الصبر والتجمل ، وعلى التأمل والتفكير . وسنصل الى تلك المحجة بالرغم عن طول المسافات وبطء المطايا البخارية والحيوانية ، اللهم اذا ثبتنا في السير والترحال .

قد كان سروري في خروجي من البحرين مثل سروري في الوصول اليها . كيف لا وكل خطوة الان تدنيني من البغية القصوى ، فقد ذللت من العقبات البحر والانكليز ولم يبق امامي غير زاوية من الخليج تأبى البخار ، وارض لا تلين لغير الابل . ان الساحل في تلك الزاوية ، جنوباً بغرب من البحرين ، على مسافة اربعين ميلاً من المنامة ، هو اول ما نشاهده من ملك ابن السعود . هناك العقير وشاطيء الاحساء الذي يُرى من مكان في اخر الجزيرة يدعى رأس البر . اما المسافة بين البلدين فهي رهن الشراع ، والشراع رهن الرياح . فاذا لانت كان حظك من السفر على طريقة الاجداد ست ساعات فقط . واذا عارضت تفوز بالثلاثين . وقد تتجاوز الثلاثين اذا كنت الى « نبتون » من المقربين .

احبني اله البحر فاستبقاني في مجلسي يا الجلبوت (١) نهاراً واحداً وليلتين .

---

(١) الجلبوت مركب شراعي صدره ، وهو للبضاعة ، مرتفع مستطيل . وفي مؤخره قبة او علية للمسافرين يسميها الملاحون عرشة . وهو اذا كان كبيراً شبيه بالمُهيلة في العراق وبالسنبوك في البحر الاحمر . واذا كان صغيراً فلا يكون له عرشة فيشبه اذ ذاك البَلَم . اما اسمه جلبوت ، ولا يسمى كذلك الا في البحرين ، فهو على ما اظن تحريف jolly boat في الانكليزية اي مركب للنزهة لطيف .

اذ بعد ان خرجنا من مياه المنامة مساء سكنت الريح ولم تتحرك بما يرضي الله والشراع حتى انتصاف الليلة الثانية . و كنت اثناء ذلك اذ كر القصيبي بالخير واشكره خصوصاً على كرسي جعلته سريري وعلى طاهٍ انعشني بشيء من المرق . وبينما انا نائم في الليلة الثانية ، او بالحري مرميٌ كطرد في القبة وقد برد الدم مني وتعقدت الاعصاب ، سمعت صوت الناخوذاه يصدر الاوامر برفع الشراع ، وسمعت الملاحين يرددون انشاداً : شلنا وتوكلنا علالله . شلنا — وتوكلنا علالله . فتحركتُ في معقلي الصغير وقد انعشني الهواء كما انعش من الجلبوت الشراع . وشكرت مسكّن الرياح ومثيرها . فقلت : لا شيل يقيناً لولاه ، ولا توكل على سواه . — شلنا وتوكلنا على الله .

كنا في الهجيع الثاني من الليل قريبين من برٍ ظننته الاحساء فما صدق الظن . وشد ما كانت دهشتي وخيبتي لما علمت اننا لا نزال عند بر الجزيرة . على ان الرياح تجاري اذا شاءت البخار ، وتسبق الحديد الدوار . ولا اظنك اذا كنت ملاحاً تماريني في ذلك . اجل ، عندما ينتفض فيمتلي الشراع ، فقل للمسافات : الوداع . ان هي الا ساعة حتى اجتزنا رأس البر و كان الهواء قد اثقل جفني فنمت قليلاً ، ثم ايقظني صوت الملاحين وهم اذ ذاك يشتغلون في قلب الشراع طوعاً للريح ويرددون : صلّ على النبي صلّ عالا النابي ! وربك ايها القارىء ما سمعت في انغام الليل على المياه اطرب منها . الا ان يكون صوت المؤذن في الخليج وهو يؤذن الفجر . ليس في صلوات الامم كلها ادعى منه الى الورع والخشوع ، وقلّ فيها ما هو اجمل وقعاً في النفس من صلاة الملاّح في ظل الشراع .

صلى اخواني الفجر ، عند ما دخلنا ميناء العقير ، ورفعوا العلم ، علم ابن

سعود ، وهو اخضر ذو حاشية بيضاء مكتوب عليه : لا اله الا الله . وقد كان ينتظرنا هناك على الرصيف السيد هاشم وامير القصر ، فمشينا معهما الى البيت المعد للضيوف ، وفيه سرير ابهجني مرآه . واعجبت كذلك بذوق رفيقي الذي علم السبب في ابطاء السفينة وقرأ في وجهي قصة الليلتين ، فتركني والسرير وانصرف .

ذكرت الامير والقصر . فلا يظنن القارىء ان القصر قصر وان الامير امير . بل هي اسماء اصطلح اهل نجد عليها . فهم لا يرغبون في الالقاب بل يزدرونها ، ولا يرون غير المساواة ، وقد ساوى بينهم دين التوحيد ، شرعاً وسنة . اما اذا شاء امامهم ان يسمي عماله امراء ، وقد يتضمن ذلك التحقير لمن يدّعون النبالة ولا يستحقونها ، فهم لا يعترضون . واذا شاء النجدي ان يسمي خربة له في الصحراء قصراً فلا الامام يعترض ولا الرعية . اما الامير الحقيقي عندهم فهو من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به احداً ، ولا يخاف ولا يرتجي سواه . واما القصر الحقيقي فهو المسجد .

ليست العقير بمدينة او قرية ولا هي حتى مضرب من مضارب البدو . انما العقير اسم لقصر من القصور التي ذكرت ، ولجمرك من جمارك نجد في الاحساء على ساحل الخليج . العقير هي احدى موانيء السلطان الثلاثة يتبعها القطيف والجُبَيل شمالاً منها . ولكنها موانيء قلما يُرى فيها غير المراكب الشراعية . ومن العقير تبدأ الطريق الشرقية الى نجد .

اما القصر فهو بناء كبير مستطيل يقيم في جناح منه الامير والضيوف ، ويستخدم الجناح الاخر للجمرك وللحامية التي لا تتجاوز العشرة الانفار .

وامام القصر على الساحل ساحة كبيرة تمرح فيها الابل وتنزل اليها البضاعة، فتتبادل سفن الصحراء وسفن اليم احمالها . الخام والارز والسكر من بمباي والنفط من عبّادان — احملها يا بعير الى ما وراء الدهناء . والتمر من الحسا والجلود والصوف من سدْير والوشم، والسمن من الخرْج والافلاج — خذها ياجلبوت الى البحرين لتُنقَل من هناك الى ما دون الخليج والبحار .

بذور للزارعين

السير في شوارع المدن الكبرى يذكر الانسان بالانسان . اما السير في الوادي او الغاب فيذكر السائر بالخالق العظيم .

.....

اصلحوا الحياة تصلح الحكومة . اصلحوا الحياة تصلحوا المدنية .

.....

الغرب عندي رمز الطموح والشرق رمز القناعة . نفسي في ناحية وقلبي في الناحية الاخرى .

النجوم

لايلاس فياض

وقد ترجمها امين الريحاني الى اللغة الانكليزية

قلت للنيرات ذات مساء — اترى انت مثلنا في شقاء

ساهرات الجفون — هل لفراق — خافقات الضلوع — هل للقاء

هائمات مع المجرة تجرين — الى غير غاية او رجاء

مثل سرب من القطا ظامئات — حول ماء يمنعن ورد الماء

ان في لحظك الشجي حنيناً — نافذاً سهمه الى احشائي

وارى نورك الضئيل كدمع — سائل من محاجر بيضاء

أثغور كئيبة ام جراح — انت في اللانهاية السوداء

انت يا جدة الخلائق ام الـــــدهر يا ربة الهدى والضياء

انت تبكين يا نجوم؟ اجابت — نحن في عزلة بهذا الفضاء

بيننا الهجر من قديم فلا يغـــــرك منا تقارب الاضواء

كل نجم منا يعيش بعيداً — عن اخيه في وحشة وجفاء

محرقاً نفسه بغير انتفاع — ذاهباً نوره سدى في السماء

.....

قد فهمت الذي تقولين ياشهب — فانثنى انفس الشعراء

THE STARS
by
ELIAS FAIYAD

TRANSLATED INTO ENGLISH
by
AMEEN RIHANI

هذا مثالٌ من ترجمته الى اللغة الانكليزية . والاصل العربي يقع في الصفحة المواجهة لهذه الترجمة . اما قصيدة « النجوم » فهي للشاعر الياس بك فياض ترجمها الريحاني سنة ١٩٢٧ .

One night, in deepest gloom, I asked the stars,
Wakeful and tremulous in veils of mist: -
Are you like me ? What is' it then that mars
Your calmness ? Is it a parting or a tryst ?

Wandering distraught along the Milky Way,
Without a hope, a purpose, or a guide,
Like thirsty doves that hover in dismay
Around forbidden pools at eventide; -

There is a sorrow in your wistful glance
That sends its arrow through the heart of night,
And in your alabaster orbs, Romance
its tears dissembles in a stream of light,

What are you ? Ancient wounds or mouths of grief
In the infinity of the unknown ?
What are you ? Do you also find relief
In Weeping ? Are you also world-ward blown ?

Do you, too, weep, O stars ? — in sooth, alas.
Deep gulfs between us yawn, and in the nude
Infinities of darkness we are bound
To incommunicable solitude.

The gulfs of seperation are of old;
Be not deceived that our lights seem so near
Unto each other — ; in lonliness we fold
our nights, though boon companions we appear.

Wasted our light : — In vain it travels far;
In vain our sighs are mooned, our tears empearled
In vain . . . . . .
I understand, O stars; you are
The spirits of the poets of the world,

حصاد الزمان

لهارولد بُلسفير

وهاك ترجمة له من اللغة الانكليزية الى الشعر المنثور في اللغة العربية . والاصل الانكليزي يقع في الصفحة المواجهة لهذه الترجمة. اما قصيدة « Harvest of Time » «حصاد الزمان » فهي للشاعر الاميركي « Harold T. Pulsifer » هارولد بُلسفير ولقد ترجمها الريحاني سنة ١٩٢٢ . ولكننا آثرنا وضعها هنا تسهيلاً للمقارنة بينها وبين التي سبقتها .

ان الزمان لَيَذري الجمالَ بريح السموم ،
فينبذ من بين ناضر الحبِّ اليابسَ الهشيم .
وسيجيء الغدُ بسنابل ذهبية للحصد ،
فتعود الى الارض البهجة والبهاء ،
وترتفع اصوات وحيدة لها صولاتٌ طائلات ،
وتُسمَع مرة اخرى الكلمات البليغات الخالدات .
غداً — وان كان لا يعرف لفجرهِ آن .
غداً — وان جُهل الزارع ، وجُهل المكان .

٥٥٥

وقد تكون الارض الرائدة حتى اليوم دَرّية .

فترفع الى ذروة المجد امة منسية ،
وهي تلمس براعم الجمال في قلبها النّدي ،
وقد زرعت غصنه يدٌ خفية .
الجمال ! — كل ملك اثيلٍ يزول ، والجمال يدوم ،
فعجّل بذري الهشيم ، وعجل بكشف الغيوم .

HARVEST OF TIME

by

HAROLD T. PULSIFER

TRANSLATED INTO ARABIC

by

AMEEN RIHANI

Time winnows beauty with a fiery wind.
Driving the dead chaff from the living grain.
Some day there will be golden sheaves to bind;
There will be wonder in the world again.
There will be lonely phrases born to power
There will be words immortal and profound;
Tho no man knows the coming of the hour,
And no man knows the sower or the ground.
It may be even now the ranging earth
Lifting to glory some forgotten land
Feels there deep beauty quickening to birth,
Sprung from the sowing of hidden hand.
Beauty endures tho towering empires die
O speed the blown chaff down the smoking sky!

مختارة

من « التطرف والاصلاح » ، طبع ١٩٢٨

« التطرف والاصلاح » عنوان لبحث اجتماعي يدور حول العدل والمساواة بين الناس . وفي المختارة التالية يطالع القارىء نظرية من نظريات الكاتب في الموضوع .

ان الجهل والخوف توأمان امهما العبودية وابوهما الظلم . وان عقلية الاسرة كلها لعقلية العبيد . وما ادراك ما عقلية العبيد . انها لتبدو في السيد وفي المسود — في الوزير وفي الحقير — في المؤمن اللابس العمامة او البرنيطة ، وفي رئيسه الرافل بالدمقس او بالارجوان : — انا سيدك ، وهذا نيري على رقبتك . ثم يقول لمن هو ارفع منه : — انت سيدي ، وهذا نيرك على رقبتي . سبحان من جعل النير رمز المساواة !

ومرحباً بمن جاء يكسّر الانيار ، ويحرر العبيد !

٥٥٥

ان العلم والحكمة والحرية هم الرعاة الحقيقيون . هم الذين يعرفون الموارد العذبة ، والمناجع الخصبة الطيبة ، فيدعون ولا يُكرِهون . اجل ، انهم ليدعون بالحسنى ولا يكرهون احداً .

ولكن الناس عبيد ما ألفوا يسيرون تابعين ، مسوقين فيقتفون الآثار البادية للعين او لحاسة الشم ، وان افضت بهم الى القفار المهلكة او الى البوادي التي يكثر فيها السراب فان لم يقم فيهم من يحمل العصا ويصيح

صيحة المنقذ ، فهم لا يسمعون ولا يزدجرون .

٥٥٥

هم الناس — يقدسون الجهل ، ويبنون معابد للخوف ، ويشعلون امام الظلم الشموع ، ويقدمون للضلال القرابين ، ويجلسون بعد ذلك كالقضاة يدين بعضهم بعضاً ، ثم يمشون في الاسواق على الاثنين وقد حجبوا الاذناب بالجوخ والحرير .

٥٥٥

لو كانت هذه الانسانية مرنة في معقولها ومفهومها لاثرت فيها الحكمة والاعتدال تأثيراً حسناً سريعاً . اما وهي متزاحمة متراصة ، بطيئة الحركة ، كثيفة الذهن والاحساس ، مثقلة بتقاليد وخرافات اقدم من أور الكلدانيين ، فلا بد من استخدام الالغام والمدافع في استنهاضها واستحثاثها ، لا بد من الحماسة تهزها ، ومن الاهواء الاصلاحية تهيج اعصابها ، ومن خمر الحرية يشعل في عروقها نار الهوس والمغامرة .

لا بد من التطرف يغضبها ، فيستفزهـا ، فتنشط في الاقل الى محاربة المصلحين وتستفيد من مجرد الحركة والمقاومة .

وانك لتشاهد التطرف حتى في الكائنات ، وفي نواميس الطبيعة فما معنى الزلازل اذن ، والبراكين ، والسيول ، والطوفان ، والامراض السارية ؟ وان في تاريخ الانسان اخوات لها نسميها الثورات والحروب .

ان الثورة مطهر الامة وقد ثارت على ما فيها من الظلم والفساد ، ان الثورة مطهر الانسان وقد ثار على ما في نفسه من قديم التقاليد والخرافات . ومن لا يثور على ما في نفسه ، لاينجو من العبودية ، ولا حق له ان يشكو العبودية .

مختارة

من كتاب « النكبات »

(النكبات) ١٩٢٨ وهو خلاصة تاريخ سورية من العهد الاول بعد الطوفان الى العهد الحالي • ويقع في ١١٢ صفحة من قياس « ملوك العرب » •

وقد اراد المؤلف ان يصرف به انظار اهل هذه البلاد عن التغني الفارغ بالماضي • وان يوجههم الى الاهتمام الجدي بمشاكل الحاضر والتطلع الداعي الى آمال المستقبل •

اخواني ابناء هذه البلاد ، سهلها وجبلها وساحلها :
كثيراً ما نقرأ ونسمع ان تاريخنا مجيد ،
وكثيراً ما نتغنى بمجد الاجداد ، وبمفاخر الاجداد •
فتعالوا نعيد النظر في اهمّ ما في التاريخ ،
تعالوا نزور الماضي الذي ألهانا عن كل مكرمة •
تعالوا نزور الماضي فنقصر اذ ذاك من ذكر الاجداد •

○○○

ومن هم الاجداد ، اجدادي واجدادكم ؟
القوي منهم كان ظالماً ، والضعيف كان مستعبَداً •

اقرأوا التاريخ منزهين عن الاغراض مجردين من الاهواء .
اقرأوا التاريخ لتدركوا اللّب فيه ، فتنسوا اذ ذاك قريضه وقوافيه .
اقرأوا التاريخ متفهمين روحه وروح ابطاله ، فتودون اذ ذاك ان تنسوا الماضي .

٥٥٥

انسوا الماضي ، انسوه غير آسفين .

مراقبة

ظفر الميت خيال لا يفيد ، وما حك جلدَك مثلُ ظفرك .
اذن ، تعالوا نتفاهم ، فنتآلف ، فنتضامن ، فنتحد في سبيل الوطن بل في سبيل الحياة .
تعالوا نكتب صفحة جديدة في تاريخ هذه البلاد .

بذور المزارعين

لتكن غايتك اكبر من مقدرتك فيصبح عملك اليوم احسن من عملك البارح وعمل الغد احسن من عمل اليوم

الشاب المجهول

في هذه النبذة من « تاريخ نجد الحديث وملحقاته » يصف الكاتب دوراً من حياة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود . وذلك حين كان ابن سعود مجهولاً في الكويت قبل ان يسترد ملكه من آل الرشيد .

ولد في الرياض عاصمة ملك اجداده ، فرأى عمومته يتنازعون الملك ويتحاربون ، ورأى العدو على ابواب العاصمة وهو يطمع بالاستيلاء على نجد اجمع ، ورأى اباه يحارب في الوقعة الاخيرة ويستسلم الى الله . ثم سمعه وهو جالس الى جنبه في الحساء يرفض شروط الدولة العلية ، فسُدّت امامه الابواب كلها الا الباب الى الصحراء ، فلجأ الى خيام الشعر وهو مثل اصحابها لا يملك فتراً من الارض ، وليس له غير تلك الثقة الوطيدة العالية ، الثقة بالله ، التي هي كنز الاعرابي الاكبر .

ثم سكن الاب الكويت ، وصار الصبي شاباً ، فكانت الذكرى الاليمة رفيقة افكاره وسميرة احلامه . قرأ شيئاً من العلوم هناك ، وهو يفكر في الملك المفقود . جلس امام البحر وهو لا يدري اذا ركبه الى اين تحمله الاقدار ، ثم نظر الى البادية وهو يهجس بالملك المفقود . عاشر الامراء والعلماء ، وجلس ساكتاً متأدباً في مجلس الشيوخ ، وهو يحلم بالملك المفقود . فتح الكتاب ثم القاه جانباً ، وهو يرمق السيف بنظرة كلها شوق وامل .

عاش مجهولاً في الكويت ، مجهولاً الا في الاسم والنسب ، وفي ما يبدو للعين المجردة . فقد كان الناس يعرفون ان ذاك الشاب القوي البنية ، الطويل القامة ، البراق العين ، هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود . وما كان كبار القوم فكراً وفراسة ليعرفون اكثر من ذلك . بل كانوا كلهم في ظلال سور الغيب كالاطفال . جهلوا ما كان يجهله حتى اقرب الناس الى عبد العزيز ، حتى ابوه وامه . جهلوا ما كان يجهله التاريخ . جهلوا ما كان يجهله الشاب المجهول نفسه . جهلوا ما لم يكن يعلم به غير الله .

بذور المزارعين

ان حجة ما بعد الموت لا كبر حجة . اما حجة الحياة وهي حجتي فهي عقلية ادبية تاريخية فلسفية فاذا كان العقل والادب والتاريخ والفلسفة تضلل الناس . فانا اذن من الضالين في هذه الدنيا ومن المغضوب عليهم في الآخرة .

.....

الناس اشباح تحركها الاغراض والاهواء وتتقاذفها في بحار الحب والبغض الرياح والانواء .

احتلال الرياض

في هذا الفصل من « تاريخ نجد الحديث وملحقاته » الذي طبع سنة ١٩٢٨ - يعرض الكاتب حقبة من تاريخ نجد المجهول باسلوب طلي جذاب يستهويك فتشعر كأنك تطالع رواية او تصغي الى حديث قاصٍ أخّاذ في مجلس من مجالس العرب .

بعد وقعة الصريف واستتباب السيادة الرشيدية في نجد شدّ الظافر ثانية على ابن الصباح ، فنزل (١) الحفر الماء المعروف الكائن في منتصف الطريق بين القصيم والكويت . وراح يوسف آل ابراهيم يشحذ بالاصفر الرنان عزم الدولة او بالحري عزم اولي الامر من رجالها في العراق .

وكانت شكوى الموتورين ابناء اخوي الشيخ مبارك قد وصلت الى الاستانة ففتحت لها السياسة اذنها وبريطانية العظمى وقتئذٍ وراء الستار . قال السفير الكلمة التي طالما اصاخ لها الباب العالي فأنذر صاحب الكويت . أجل ، انقلبت الدولة العلية على الشيخ مبارك ، وهو الذي ساعدها لتستولي على الحساء ، فسيرت الى الكويت باخرة حربية .

وكان ابن الرشيد قد زحف الى اطراف البلاد وهم بالهجوم على الجهرى ، تلك البلدة الكائنة وراء الخليج على ضفة الجون الغربي ، على مسافة

(١) راجع الفصل السابع عشر من الجزء الثاني من « ملوك العرب »

خمسة عشر ميلاً من العاصمة . احاط الاعداء بالشيخ مبارك ، حاقت « بالحواقة » الاخطار . ولكنه لم يفقد من عزمه ودهائه شيئاً . فعندما رأى نفسه وبلاده في شبه الحصار فتح قلبه للدولة الاخرى الراسية بواخرها الحربية عند الشاطئ الفارسي من الخليج . ارسل الى ابي شهر يستنجد الانكليز ، فجاءه بعد ثلاثة ايام مركب حربي ورسى في مياه الكويت عشرين يوماً .

تلبد جو السياسة في بغداد والبصرة ، فابتسم مبارك وهو يجهز الحملة الثانية على ابن الرشيد . بل ضحك وهو زاحف الى الجهرى ، والمركب الحربي سائر في مرأى من الجيش اليها — اتبغون حصاري براً وبحراً ؟ ها اناذا جئتكم بحراً وبراً بالقوات التي لا تُغلب .

ولم يطلق المركب الحربي مدفعاً . الا ان الربان اذن ببعض المدافع الرشاشة فانزلت في الزوارق الى البر ومعها ضابط علموا الكويتيين استخدامها . ثم خطر في بال ذاك الربان الذكي ان يرهب العربان بالاسهم النارية ، فارسلها ليلاً في الفضاء وكان لها التأثير المطلوب . قيل ان ابن الرشيد ورجاله لاذو بالفرار عندما رأوا النيران تشتعل في كبد السماء .

بعد هذا الحادث وتلك الاسهم النارية ادرك الامير الشمري انه بدون مساعدة الدولة مباشرة لا يستطيع الاستيلاء على الكويت . عاد اذن بجيشه الى الحفر ، وشرع يفاوض الترك في بغداد . فلما علم الشيخ مبارك بذلك اراد ان يشغله بنجد وراء الدهناء .

وكان السعد في وجود آل سعود بالكويت خادماً لمبارك . هوذا عبد العزيز وهو يأبى ان يقف في الغزو عند خيبته الاولى . هوذا عبد العزيز وهو منذ رجوعه من الرياض يلح على والده ليستأذن من الشيخ مبارك باعادة

الكرة على ابن الرشيد ، فاذن الشيخ حباً و كرامة .

ولكن الغزو يكون جماعة . والجماعة -- اربعون رجلاً من عائلة آل سعود وخدامهم السابقين — حاضرون ، لا يلزمهم غير الركائب والبنادق والزاد ، وشيء من المال . اجاب الشيخ مبارك الطلب فاعطى عبد العزيز اربعين ذلولاً ، وثلاثين بندقية ، ومئتي ريالاً ، وبعض الزاد .

١٣١٩ هـ
١٩٠١ م

كان عبد العزيز في الواحد والعشرين من سنه عندما خرج بهذه الشرذمة من الكويت . خرج «ينحر» — يقصد — البوادي عله يزيد في الاقل عـدد رجاله . نحروا العجمان فتردد الرؤساء فيهم ولكن كثيرين من العامة انضموا الى غزو ابن سعود . وكذلك آل مرة وسبيع والسهول ، فاشتد ساعـد عبد العزيز . أصبح معـه بدل الاربعين ذلولاً الف ذلول واربعمئة خيال .

هو جيش في البادية يذكر . ركب القائد الشاب على رأسه يقطع الصمان والدهناء فوصل الى مكان يقال له العرض بنجد وغزا هنـاك عرب قحطان الذين كانوا تابعين لابن الرشيد ، فاصاب منهم مغنما كبيراً ، وعاد الى ناحية الحساء .

عندما علم ابن الرشيد بهذه الغزوة هجم في اطراف الكويت على قبائل عربيدار (١) ليظهر انه لا يبالي بمثل هذا العدد .

ولكن ابن سعود بعد ان موّن جيشه في الحساء خرج غازياً مرة اخرى ، فوصل الى سدير ، فاغار هناك في مكان يدعى عُشيرة على قبيلة من

(١) اسمٌ لخليط من العرب لا ينتسبون الى قبيلة من القبائل

قحطان واخرى من مطير فاخذهما ورجع بالغنائم فنزل ثانية في اطراف الحساء . وكان جيشه يزداد في كل غزوة حتى اصبح الف وخمسمئة ذلول وستمئة خيال .

اما ابن الرشيد فعاد بجيشه الى الحفر . ولما بلغه خبر غزوات ابن سعود الموفقة ارسل رسولاً اسمه الحازمي الى الشيخ قاسم ابن ثاني يستنهضه على هذا العدو الجديد . ثم كتب الى حكومة البصره لتوعز الى حكومة الحساء بطرد ابن سعود من تلك النواحي وبتحريض البوادي عليه . اجابت الحكومة طلب ابن الرشيد ، فشرد خوفاً منها ومنه اكثر من الف هجان ومئة خيال من جيش ابن سعود ، فلم يبال بذلك لانه لم يكن ليركن الا لرجاله الاربعين الاولين .

غزا بما تبقى معه الغزوة الثالثة فوصل الى جنوبي نجد واغار هناك على قبائل من الدواسر فلم يصب مغنماً كبيراً . ولكنه عاد الى ناحية الحسا . وكان وقت الشتاء فتفرق البدو طالبين المرعى لمواشيهم . لم يكن ليربطهم بابن سعود الا حب الكسب ، فمن اين له والحال هذه ان يكرههم على البقاء .

اربعون رجلاً ظلوا اربعين بعد ان ذاقوا حلاوة النصر ومر الفشل والخسران . ولم يكن لعبد العزيز الشاب ما يشحذ عزمهم ، ويفتح لامالهم ولو كوة من النور . استمر ابن الرشيد يحرض الترك وصاحب قطر عليه ، فكتب اليه والده والشيخ مبارك يسألانه ان يرجع الى الكويت فابى . وعندما اشتد عليه ضغط الحكومة ، حكومة ، الحسا ، فرّ ورجاله هاربين جنوباً فوصلوا الى مكان بين حَرْض وواحة جبرين ، واقاموا هناك شهراً .

وكان ابن الرشيد لا يزال في الحفر وهو يستنجد الاتراك في احتلال

الكويت ، ويستحثهم على عدوه الجديد بل على آل سعود كلهم . فقطعت الدولة معاش كبيرهم ، وسدت ابواب الحسا على صغيرهم ، وهمّ ابن الرشيد ان يحصر هذا الصغير سميّه في تلك الواحة القصية على حاشية الربع الخالي(١) .

تشتت جيش عبد العزيز ، وتزعزعت امـاله ، فنهض يائساً يضرب الضربة الاخيرة ، وهو يرجو ان تكون القاضية اما عليه واما على خصمه . اعتزم الهجوم ثانية علي الرياض فاما ان يستولي عليها واما ان يقتل في سبيلها .

و كانت قوته يومئذ ستين رجلاً لا غير ، اي انه لم يبقَ معه من ذاك الجيش الذي بلغ عدده الفين غير عشرين مقاتلاً . و كان في الرياض قلعتان الواحدة ضمن الاخرى شيدهما ابن الرشيد واقام فيهما تسعين من رجاله يرأسهم امير اسمه عجلان .

خرج ابن سعود والستين البسلاء من مراحهم بين حَرْض وجبرين في ٥ رمضان ووجهتهم الرياض ، فوردوا ليلة العيد ابـا جفان ، وساروا منه في اليوم التالي فوصلوا في ٤ شوال الى حدود الرياض ونزلوا في الساعة الثالثة عربية (التاسعة ليلاً) في ضلع يبعد ساعتين عن العاصمة .

ترك عبد العزيز عشرين من قومه هناك كجيش احتياطي ، وتقدم بالاربعين الاخرين ، وفيهم اخوه محمد وعبدالله بن جلوي امير الحسا اليوم . فلـما وصل الى البساتين خارج السور اقام اخاه محمداً ومعه ثلاثون رجلاً هناك ، ومشى بالعشرة الباقين الى غرضه . ولكنه لم يتمكن من الدخول الى الحصن الخارجي اي حصن السور الا من البيت المحاذي وهو لفلاح يتجر بالبقر .

(١) واحة جبرين التي هي على مسافة مئة وستين ميلاً من الحسا جنوباً .

قرع عبد العزيز الباب فاجابت امرأة تقول : من انت ؟

عبد العزيز : رجل من رجال الامير عجلان اريد من رجلك ان يشتري لنا بقراً صباح الغد .

الامرأة : خسئت يا شبه الرجال — ما جئت تبغي البقر يا فاجر بل جئت تبغي الفساد .

عبد العزيز : لا والله ليس هذا مأربي . بل ابغي صاحب هذا البيت فاذا لم يخرج الي الآن فالامير يقتله صباح الغد .

سمع الرجل هذا التهديد فجاء يفتح الباب ، و كان عبد العزيز يعرفه من الهجوم الاول في السنة الماضية ، ويعرف حريمه وفيهن من كنّ خادمات سابقاً في بيت سعود . فلما خرج امسكه بيده قائلاً : اذا تكلمت قتلتك في الحال . فصاح النساء وقد عرفنه : عمنا ، عمنا عبد العزيز (١) .

عبد العزيز : لا بأس عليكن اذا سكتن . قال هذا وقد ادخلهن الى غرفة واقفل عليهن الباب .

ثم تسلق الجدار الى البيت الاخر عند الحصن فاذا فيه شخصان نائمان على فراش واحد ، فلفهما بالفراش وحملهما الى غرفة صغيرة ، فاودعهما هناك واقفل الباب .

اطمأن من عبد العزيز البال ، فارسل يطلب اخاه محمداً والباقين فجاءوا دون ان يشعر احد بهم واجتمعوا كلهم في ذاك المكان .

و كان البيت الاخر الى جانب الحصن للامير عجلان ، وفيه احدى نسائه وهو يزورها تارة في الليل وطوراً في النهار . مشى عبد العزيز وعشرة من

(١) في بعض الاقطار العربية كنجد والحجاز ينادي الخادم سيده : عمي

رجاله الى ذاك البيت، فدخلوه، طافوا بغرفه، فوجدوا في احداها اثنين نائمين على فراش واحد ظنهما عبد العزيز الامير عجلان وامرأته .

دخل متسللاً ومعه رجل يحمل سراجاً . فلما دنا من الفراش رفع الغطاء فاذا هناك امرأتان ، فايقظهما ، فاستوتا جالستين دون ان يعراهما شيء من الخوف . وكانت الواحدة منهما امرأة عجلان والاخرى اختها امرأة اخيه .

عرفت امرأة عجلان الرجل فبادرته بالقول : انت عبد العزيز . فاجابها : نعم . فقالت : من تبغي ؟ فاجابها : ابغي زوجك . فقالت وهي تقسم بالله : اني احب ان تقتل كل من في البلد من شمر الا زوجي . ولكني اخشى عليك منهم ، اخشى ان يقتلوك يا عبد العزيز .

عبد العزيز : ما سألناك عن هذا الامر . انما نريد ان نعرف متى يخرج عجلان من الحصن الداخلي .

امرأة عجلان : لا يخرج الا بعد طلوع الشمس بساعة .

عبد العزيز : هذا كل ما نبغيه منكن ، ولا بأس عليكن اذا سكتن . قال هذا وهو ورجاله يسوقون الامرأتين وبقية النساء الى غرفة واحدة ، فحبسوهن فيها . ثم كسروا الباب الذي يوصل الى البيت الذي كان فيه بقية الرجال فدخلوا منه ، واجتمعوا كلهم في بيت عجلان .

وكانت الساعة الثامنة عربية (الثانية بعد نصف الليل) فاستراحوا ، واكلوا التمر ، وشربوا القهوة ، وناموا قليلاً . ثم شرعوا عند انبثاق الفجر يدبرون طريقة للهجوم على الحصن الداخلي . وبعد قليل فُتح ذاك الحصن فأخرج بعض العبيد الخيل الى الشمس . فلما رأى عبد العزيز البوابة مفتوحة خرج عادياً ، فتبعه من رجاله خمسة عشر رجلاً فقط .

واتفق ان الامير عجلان كان قد خرج من الحصن عند هجومهم عليه وهو قادم الى بيته . فلما رآهم عراه الدهش والرعب فنكص ورجاله على اعقابهم وهم يبغون الرجوع . ولكن البوابة الا الخوخة (الباب الصغير فيها) كانت قد اقفلت ، وبينما كان ورجاله يدخلون من ذاك البُوَيب اطلق عبد العزيز البندقية عليه فاصابه ولم يقتله . ثم ادركه وقد صار نصفه داخل البوابة فامسكه برجليه وسحبه الى الخارج فتصارع الاثنان برهة .

اما الرجال الذين كانوا قد دخلوا الحصن صعدوا الى احد الابراج المشرفة على السوق، وشرعوا يطلقون النار من المصاليت على رجال ابن سعود، فجرحوا اربعة منهم وقتلوا اثنين .

تراجع الهاجمون الا عبدالله بن جلوي فكان اول من دخلوا الحصن ، وراح يعدو وراء عجلان الذي كان قد تفلّت من عبد العزيز ، فرماه بالرصاص فخرّ لوجهه قتيلاً .

نادى عبد العزيز برجاله واستفزهم فاقتفوا اثر عبدالله . هجموا على الحصن هجمة واحدة ، فصاحوا بمن فيه وفتكوا بهم ، فقتلوهم الا عشرين رجلاً كانوا قد تحصنوا في جهة منه . ولكن عبد العزيز أمنهم على حياتهم فسلموا .

وبعد سقوط الحصن في الخامس من شوال ١٣١٩ (١٥ يناير سنة ١٩٠٢) والاستيلاء على الرياض باشر الامير السعودي الشاب بناء السور الجديد القائم اليوم حول اقسام متهدمة من السور القديم ، فتم بناؤه في نحو خمسة اسابيع .

قلوب تذوب

« انتم الشعراء » طبع في بيروت سنة ١٩٢٢ . وقد حمل فيه الكاتب على الادب الباكي فأحدث صدور الكتاب ثورة في الاوساط الادبية . فاستمع اليه في القطعة التالية يصف لك كيف تذوب القلوب في زمن الحديد والكهرباء .

في هذه البلاد الشرقية كثير من القلوب اللينة المترهلة ، بل القلوب المائعة الذائبة . قلوب تذوب كلما ناح الحمام ، قلوب تميع كلما اهتز الورد في الاكمام ، قلوب تسيل هياماً كلما تلألأت شمس الاحلام — قلوب مائعة ذائبة على الدوام .

قلوب تذوب كلما هبت ريح الصبا ، تذوب في الليالي المقمرة ، وعند كل ساقية او غدير . تذوب في رابعة النهار لرنة عود او لائة من انات « ياليل » . قلوب تذوب في ظلال الصفصاف ، وتذوب امام الفونغراف — قلوب شرقية مائعة على الدوام .

ونحن في زمن الحديد والكهرباء !

ان حاملي هذه القلوب لا عجز في المحن والنكبات من فراخ القطا ، ولا أجبن من صغار الارانب . وما اسرعنا ، وهذه قلوبنا ، الى الشكوى والانين ، الى التلهف والتأوه والنواح . ما اسرعنا ، وما اشد صراخنا ، في ميدان الندب والنحيب . كاننا في مندب دائم ، « مراقبة » .

الجو المكفهر

هو الفصل الثالث من كتاب «فيصل الاول» الذي طبع سنة ١٩٤٤ . وفي هذا الفصل يُريك الكاتب مجلساً من مجالس الملك فيصل التي كان يتردد اليها فتحس بنفسك ، وانت محاط بأبهة الملك ، انكماشاً في الصدر يبعثه جو متلبدٌ بغيوم السياسة .

في صباح اليوم الاول من زيارتي الاولى لبغداد ، بساعة خرجت من القطار ، عراني شيء من الريب بحسن نية الشمس الشارقة . فقد كانت تبسم بسمة صفراء ، وتبص بصيصاً من خلال الغيوم البيضاء ، فتتوارى اشعتها النحيلة هنا وهناك ، بين النخيل وعند الاسوار ، كأنها حقاً بصّاصة تتجسس لمندوب الكون الاعلى .

وما كنت الوحيد يومئذٍ في ما احسست به وتشاءمت . إلا اني رأيت ما لا يراه ابناء المدينة — شمساً تخادع الافق العابس فتحجب نهاره ، كما تخادعهم في نهارهم . وهم قلما يتوقعون من هذه الشمس التي تنير العالم ان تنير كذلك قلوب الناس . لذلك رأيتهم جميعاً ، العرب والانكليز ، من ساسة القهاوي الى الملك ، ومن الجنود السائقين السيارات المصفحة الى المندوب السامي ، في حال من الجزع والقنوط انخلعت لها القلوب كما نحن نقول ، او بردت منها الارجل ، كما يقول الانكليز .

وكان ذلك في فجر السنة الثانية بعد التتويج . فقد ولت السنة الاولى باشهرها الاثني عشر ، وما تم شيء ، ما بوشر شيء في الملك الجديد حتى من مقدمات الاعمال . بل كانت الامور عكس ذلك شبيهة بالعهد السابق للتتويج ، تنبيء بالتفكك ، وتنذر بالفوضى . وليس في المراكز الثلاثة للسيادة والحكم — لا في المفوضية ولا في البلاط ولا في السراي — من يحسن او يستطيع معالجتها . فقد كانوا جميعاً يشعرون بجمود الدم في الاطراف — ان الارجل الباردة لفي كل مكان .

بيد ان المدينة بغداد ملكت على ذلك نفسها ، مثل سائر العواصم في الازمات ، وظلت لها جرأة الاستمتاع بشيء من اللهو والسرور . فما خفت في القهاوي صوت الاراكيل ، ولا خف ازدحام الناس في ابواب دور السينما . وظلت العاب الـ « بريدج » والـ « بوكر » قائمة في المنتديات ، وكانت انوار المآدب تتألق زهواً وترحاباً حسب العادة في الفنادق ، كما في بيوت القناصل وكبار الموظفين . بل كان بعض اصحاب المناصب العالية يولمون الولائم ، ويقيمون الحفلات ، متعمدين فيها مكافحة روح الغم والقنوط ، تلك الروح التي سادت خصوصاً دوائر السياسة على ضفتي دجلة ، وكادت تشل الايدي العاملة فيها والعقول .

٥٥٥

كان الملك فيصل اول القائمين بهذه الحملة التأديبية ، حملة المآدب ، على جيوش القنوط والجزع ، فأدب مأدبة لعدد كبير من رجال الحكومة والمفوضية ، وغيرها من رجال المدينة ، وشاء ان اكون من المدعوين .

وكان بين الوطنيين ، وهم في الاثواب الافرنجية الرسمية ، رجل واحد

عصي الامر المطبوع على رقعة الدعوى ، فجاء في ثوب افرنجي عادي ، وهو فوق ذلك رمادي بريء من لمس المكواة . ومع ذلك فما نظر احد منهم اليه نظرة احتقار او استعجاب ، بل وقفوا حوله يستمعون اليه وهو يحدث عن غزوات الغرب لهذه البلاد العربية وعما تنوع من جور عادات الغربيين واحكامهم .

رحم الله مجيد الشاوي ذلك العربي الحرّ الجريء الجامع بين محاسن البدو والحضر ، ذلك الفيلسوف الذي نثر الحكم وما كتبها . كان له رأس كرأس سقراط ، شكلاً ومعنىً ، ولسان كلسان صموئيل جونسون ، سقراط الانكليز ، بفصاحته ولواذعه .

سمعت مجيداً تلك الليلة يقول : « وهذا الاستبداد الحديث العهد ، استبداد « الموضه » . جاءنا كذلك من الغرب . اما نحن العرب فلا نضيع وقتنا ومالنا وتعقلنا في سبيل «الموضه» . فقد كان ولا يزال خلاصنا في بسيط عاداتنا ، وسذاجة طباعنا . انتم تبدأون حيث يمكنكم ان تنتهوا . اقول : يمكنكم — ولااقول يجب او يجوز ان تنتهوا بهذه الرسميات ، هذه الترهات . »

فقال رستم بك حيدر : ولكنك انت كذلك خاضع لسلطة «الموضه» في ثوبك الافرنجي هذا ، وقابل باستبدادها .

فاجاب على الفور : « وانا ايضاً حمار . »

فضحك الجميع ضحكة المقتنع المستهتر ، وكانت منهم تلك الليلة الضحكة الاولى والاخيرة .

مشينا الى ردهة الاستقبال حيث كان الملك فيصل واقفاً يرحب بضيوفه . وهو في الخوذة والثوب العسكري غير مهيب . وقد استوقف نظري صليب

على صدره معلق بسلسلة ذهبية ، وهو وسام الملكة فكتوريا . وكان الى جانب الملك اخوه الامير زيد في ثوب ملازم اول وعلى صدره وسام النهضة .

وهوذا المندوب السامي السر برسي كوكس ، بطوله ونحوله وتمهله ، يلبس ثوباً ابيض وقبعة بحرية ، وقد توشح بوشاح القديسين ميخائيل وجرجس عليهما السلام . ولكن الوان الوشاح ، وتحتها الابيض ، بدت باهرةً لاذعة . ما سوى ذلك فكل ما في السر برسي كوكس الظاهر للعيان هو هادىء ساكن مطمئن .

وكذلك قل في القائد العام ، مع انه كان يحمل حملين ، الواحد على صدره من الاوسمة المتألقة حجارتها ، والآخر على عاتقه مما ترمز اليه الاوسمة من العز والعظمة .

رأيت القائد يحدث جعفر باشا العسكري ، فما عجبتني صورة الاثنين معاً ، كان الانكليزي الطويل القامة ينظر من علاه وهو يحنو رأسه ومنكبيه ، ليكلم العربي القصير السمين ، الحامل كذلك بضعة اوسمة . ولكنه لا يحمل حملها الاثقل ، ذلك الحمل الرمزي المخيف .

وهوذا ياسين باشا الهاشمي ، ياسين الصامت ، بثوبه الرسمي واوسمته ، وهو صنو جعفر في ما ذكرت . مساكين هؤلاء العرب ، فهم لا يعرفون قيمة الاوسمة ، فيحملونها على صدورهم خجلين ، كأنها نقود مزيفة .

اما السيدات الانكليزيات فقد كن في اثوابهن باهرات . وما كان بينهن غير واحدة جميلة ، وواحدة تستلفت الانظار وتستوقفها ، دون شيء يبهر في ثوبها او طلعتها . هي المس بل التي كانت تؤثر البساطة في الملابس ،

والانزواء في الحفلات . ولكنها في ما وجب مشت تتقدم اترابها — لا تصح اللفظة لان فيهن من هن اصغر منها سناً . وهل يصح ان نقول مشت تتقدم زميلاتها ومهنتها فريدة ، لا تحسنها غيرها من جميع النساء ، وقلما يباريها فيها الرجال ؟ فمن هي ، ومن هن اذن ؟ هي جرترود بل ، مشت في تلك الساعة تتقدم السيدات الانكليزيات لتسلم على الملك فيصل ، فخشت امامه وجثون بعدها كما يفعلن اذا ما مثلن بين يدي مليكهم في قصره . وكانت الجميلة منهن ترفل بثوب من الحرير الاخضر المزركش بشيء فضي اللون . خير لي وللقارىء ان اقف ها هنا . وما شأني والفساتين ، وانا لا اعرف الفرق بين الـ « تفتا » والـ « كريب دي شين » ؟

ان اهم ما يسترعي النظر في هذا الجمع الباهر المتألق هو ان الانكليز والعراقيين ، الضيوف الاربعين ، تخالطوا وتلاطفوا بسهولة عجيبة ، لا اجتهاد فيها ولا تصنع ، لا تنازل من قبل الانكليز ، ولا تزلف من قبل العرب . هي الحقيقة البليغة التي استوقفتني تلك الليلة وادهشتني . كيف لا وقد تجلت فيها العقلية الجديدة التي بدأت تسود رجالات الشرق والغرب . فلا تفاضل ها هنا ، ولا شيء فيه تصاغر او تكابر . ولا يخفى عليك ان قاعدة الانكليز في الماضي هي الا يخالطوا ابناء البلاد التي يحكمونها . ولا يخفى عليك ان العرب انفسهم لا يزالون في حاجة الى شيء كثير من القوى المعنوية ، ناهيك بالسياسة ، ليطمئنوا دون ما اجتهاد من كرامتهم الشخصية والقومية . ومع ذلك فقد ظهروا تلك الليلة في مظهر حسن من الاطمئنان والكرامة .

وكان الملك فيصل الذي جمع حوله الشرق والغرب متجاملين متلائمين ، المثل الاعلى لمحاسن الاثنين . على انه كان ممسكاً في كلماته واشاراته ،

وما استطاع ان يخفي ما بدا على جبينه من اثر الجو المكفهر . اما انه ملك دمقراطي ، ومن اصدق ملوك هـذا الزمان في روحه الدمقراطية ، فما لا ريب فيه . وما اجملها دمقراطية اذا ما زانهـا جلال طبيعي موروث ، وكللها النبل المتسلسل من سدة عالية طاهرة . وما كان فيصل يظهر انه مدرك ذلك ، ولا كان يجب ان يدركه الناس . وعندي ان قليلاً من هذا الادراك في الاثنين لا يضر ، بل هو يمكّن الثقة بالنفس ، فلا يَقلقَ الملك ، ويُمد بالعزة والامل ، فلا ييأس الناس .

اما في تلك الليلة فقد كان الملك كالباني الذي باشر البناء ، وهو غير متيقن ان الاساس صالح متين . فقرأنا في طلعته الناعمة سطرين خطهما الغم والاضطراب . وقد كان عالماً كل العلم بمجاري السياسة ، الظاهرة والخفية ان كان على ضفة دجلة الغربية — الانكليزية — او على الضفة الشرقية — العراقية . فلا عجب اذا سرت منـه تموجات نفذت الى قلوب الضيوف فبدا تأثيرها في وجوههم . وكأنهم جميعاً عالمون بما لا يجب ان يظهر ، بما لا يجب ان يُذكر ، بما لا يجب ان يفكر احد به . فكانت الكآبة الملكةَ تلك الليلة ، وكان الملك اول من خضع لسلطانها .

يقال ان المادب الملكية هي دائماً قاتمة جاهمة ، يحف بها السكوت ، ويسودها التحفظ . ولكني أؤكد لك ان المآدب الملكية العربية ليست كذلك . ومع ان هناك تقليداً يستوجب السكوت لدى الخوان ، فالعرب لا يفرضونه على الضيف ، ولا يتقيدون به . بل تراهم على عكس ذلك محدثين ، مشجعين على الحديث ، وهم فوق هذا يحبون النكتة ويحسنونها ،

بل يحسبون المزاح ملح الطعام ، والضحك خير المقبلات .

والملك فيصل ، وهو من صميم العرب ، كان في الساعة الصافية مثل والده الحسين عذب الحديث ، مفكهاً ، محباً للفكاهة ، مقدراً لمن يجيدها . اما في مثل هذا الحال ، وهذا الجو المكفهر ، فصوت افصح المحدثين يخفت ، وروح الزهو والمرح تجمد حتى في امثال ابي النواس .

وما كانت المائده لتنعم بما حُرمته ردهة الاستقبال . نقلنا ، ونقل الجو معنا . فجلست الى يمين الملك اللابدي كوكس والى يساره القائد العام وما كان الملك يحسن الانكليزية في تلك الايام لينجو بنفسه من عربيـة السيدة المكسرة ، وافرنسية الجنرال المتعثرة . على ان المس بِلْ ، التي كانت جالسة امامه الى يسار الامير زيد ، حاولت ان تخفف من مصيبته في ما كانت تتبرع به ، بلسانها العربي العراقي ، من قصة او حديث . ولكنها ما افلحت في ما حاولت .

وكان السر برسي كوكس يراقبها ، فساءه ان عيّت فانبرى لنجدتها ، وجاء بما كان يضحك حقاً في غير تلك الساعة العاصية . سأل السر برسي ، وهو يرفع بناظريه الى السقف ، سؤالاً في علم الحيوان . ما هو اسم الـ badger باللغة العربية ؟ فجاب السؤال المائدة من شرقها الى غربها ، وما كان موفقاً . ثم عاد الى صاحبه يعزّي جهله بالجهل العام (١) .

وفي تلك الدقيقة فرغ صبر الملك فيصل فتثاءب . نعم ، تثاءب مرتين . فقلت في نفسي ما احوج الملوك الى الندماء امثال ابي النواس .

---

(١) عدت بعدئذ الى الدميري رغبة بخدمة السر برسي ، فوجدت ان الغرير هو اقرب الحيوانات الى ما يسمى بالانكليزية badger .

وما احوجنا اليهم نحن الضيوف كذلك . فقد كان حالنا يزيد ولا ريب بغم الملك . وما كان هذا الملك وهو سيد بغداد الاكبر ، يملك خاتماً من خواتم السحر التي كانت تُصنع ها هنا في عهد الجن ، فيفركه ويأمر عبده بان يُحضر ابا النواس في الحال . ولكنه امر بتلك التي كانت لابي نواس المعشوقة الاولى . نعم ، أمر بالخمرة اكراماً للانكليز ، وغض الطرف عمن استسلموا اليها من العراقيين .

بذور للزارعين

تخشون الموت ايها الناس ولا تشعرون بموت انتم فيه . ان عظاماً في الاجداث بالية خير من هاته الاشباح التي تتمشى في اسواق المدينة

.....

لاتتوقع من صديقك ان ينصرك اذا كنت مخطئاً . ولا ان يجد بامرك اذا كنت فيه بطيئاً

الفصل الاول

من «وفاء الزمان»

وضعت خصيصاً لمهرجان الفردوسي الذي اقامته ايران سنة ١٩٣٤ احتفالاً بمرور الف عام على مولد الشاعر الخالد مؤسس الشاهنامه . وفيها يتجلى الزمان بشخصية الوفي للرجال الذين اغنوا الحياة بالاثار الخالدة .

السلطان : (في قصره بغزنه وهو جالس على فراش الملك) قال لنا بعض رجال البلاط، وفيهم الشاعر والعالم ، انك من الشعراء المبرزين .

الفردوسي : (واقفاً امامه) صدقوا ، يا مولاي !

السلطان : وانك عالم بقصص الملوك واساطير الاقدمين .

الفردوسي : صدقوا ، يا مولاي

السلطان : (مبتسماً) وانك على جانب من القحة يذكر ولا يشكر

الفردوسي : (باللهجة الواحدة) اما في هذا ، يا مولاي ، فما صدقوا

السلطان : وهل يكذب الصادقون ؟

الفردوسي : ما قلت انهم كذبوا ، يا مولاي . ولكن الكمال لله

السلطان : وهلا قلت : ولرسوله ؟

الفردوسي : ولرسوله ، صلى الله عليه وسلم . ولحامل لواء الرسول السيد المالك ، الغازي المظفر ، يمين الدولة ، وامين الملة محمود ناصر الدين ابي منصور سبكتكين

السلطان : انك لمن الظرفاء . اجلس

الفردوسي : (وهو يجلس على الديوان) والحمد لله على ذلك

السلطان : وقد يكذب الصادقون في ما يقولون فيك، ويصدق الكاذبون

الفردوسي : اني بين يدي مولاي السلطان ، ايده الله ، وانه ليرى بعين قلبه ما لا يراه الناس

السلطان : احسنت في هذا . فاعلم اننا دعوناك لغرض وطني جليل . ونحن فيه مقتدون بمن ادركوا من السلف الصالح قيمة الشعر في تخليد امجاد الملوك والتاريخ . فان في مكتبتنا شيئاً كثيراً من القصص والاساطير، المنظوم منها والمنثور، المجموعة في ايام اسلافنا المحبين للشعراء والعلماء . واول من اهتم بجمعها ، لتنظم في ديوان متمم الاجزاء والتأليف ، هو الملك كسرى انوشروان . ثم الف ابو منصور المعمري كتابه المعروف بكتاب الملوك، وما اظنك جاهله

الفردوسي : ولا منكر فضله . فقد حفزني المعمري لأحياء الامة الايرانية باللغة الفارسية ، وهيج ثره شعري

السلطان : وما اظنك تجهل ان ابا منصور الدقيقي شاعر الامير نوح ، آخر الامراء السامانيين ، كان قد باشر نظم الديوان المنشود

الفردوسي : الدقيقي ، يا مولاي، شاعر مجيد، عالي الالهام، صادق اللهجة . وان ما نظمه لمن الشعر النفيس

السلطان : رحمه الله . فقد حال القدر دون عمله ، فما انجز غير جزء صغير منه

الفردوسي : الف بيت لا غير

السلطان : واننا متيقنون ان الفردوسي يأتينا بما لم يستطعه المتقدمون

(الفردوسي يقف وينحني امام السلطان)

السلطان : انت يا ... ما كنيتك ؟

الفردوسي : ابو القاسم ، يا مولاي

السلطان : انت ، يا ابا القاسم ، محط رحال اختيارنا

الفردوسي : انحني امام بحر التعطف والفضل ، واسأل الله ألا يغرقني فيه

السلطان : (ضاحكاً) لتطمئن نفسك . سنبقيك على الشاطىء ولا نريك من قعر البحر ، ان شاء الله ، غير دره

الفردوسي : وما درر الشعراء اذا قوبلت بدرر السلاطين ؟

السلطان : هذا التبذل في المجاملة لا يليق بك .

الفردوسي : صدقتم يا مولاي . لكل جواد كبوة .

السلطان : أقال الله كبوتك ، ووفقك في ما اخترناك له . فالحلم الذي حلمه كسرى انو شروان ، سيحققه السلطان محمود

الفردوسي : (مبتسماً) ان شاء الله .

السلطان : (وقد ادرك مغمز الشاعر) عفا الله عنك . اننا لمن اهل الورع والتقوى — ان شاء الله — ومن اهل الجود والكرم . فسنجزيك على ديوانك ، يا ابا القاسم ، خير جزاء .

الفردوسي : جزاء الشاعر عمله ، يا مولاي . ولكن هذا الشاعر ، عبد الله وعبدكم ، هو من ابناء الارض ، كما انه من ابناء السماء . فقد كان أكاراً قبل ان صار شاعراً . هو لذلك يحب الارض ، ويرعى حق ما يغرس ويُزرع فيها . وما قسمته من ارض ربه وسلطانه غير القليل . ولكن هذا القليل عرّفه بقلب الحياة

الزراعية ، فصار يحن اليها ، ويرثي لحالها . ان طوس بلدي لفي افتقار الى كرم الله ، بل الى رحمته تعالى . فكثيراً ما تموت البذرة في اراضينا من الظماء ، وكثيراً ما تهلك الاشجار . ان القيظ بلاؤنا ، يا مولاي ، وان الجدب عدونا الاكبر . واني واثق بالله وبمولاي الغازي المظفر اننا سنتغلب على هذا العدو .

السلطان : الغيث والحياة بيد الله . فان امسك او ارسل ، فليس للانسان غير الشكر . وهو في الحالين عاجز

الفردوسي : ولكن العلم ، يا مولاي ، يعين الانسان في عجزه . فقد كنت منذ صباي احلم الاحلام لانقاذ طوس من عدوها . ولا يزال لي امل حي مفتاحه العلم . اريد ان ابني سداً عظيماً يجمع من المياه ما يكفي في ايام القيظ ارض طوس واهلها .

السلطان : جليل هو علمك ، وشريف املك وحلمك . فاذا كان ينقصك المال نقول سيتحقق الحلم ان شاء الله . سنجزيك عن كل بيت من الشعر ديناراً واحداً . وكلما انجزت الالف بيت تجيئك الالف ذهباً .

الفردوسي : (ينحني شاكراً) ولكني لا اريد المال الفاً الفاً . اريده بكامله . دفعةً واحدة عندما يتم العمل فتباشر بعد النظم البناء ، فيتحقق املي بالري ، كما يتحقق املكم بالشاهنامه .

السلطان : (وهو يقف) حقق الله الاملين ، يا ابا القاسم .

الفردوسي : في عهدكم السعيد ، يا مولاي ، ان شاء الله .

(ينحني ويخرج) الستار

مغزى اللبنة

الفصل الاول من القسم الثاني من « قلب العراق » الذي طُبع سنة ١٩٣٥ وقامت حوله قيامة الاثريين في العراق لما جاء فيه من الانتقادات حول المحافظة على الاثار . وفي « مغزى اللبنة » وصف لمعامل الطوب وكيف يُنجز صنع الحجارة فيها .

لا يزال ببغداد من الاثار القديمة ما يعود بعضها الى القرن الرابع للهجرة . سنعود بك الف سنة اذن، لنريك ما نجا من صول العناصر ، وغوائل الزمان . وانك لتعجب للرسم الطامس ، والطلل الدارس ، فضلاً عن الصرح الذي لا يزال قائماً سليماً نافعاً ، اذا ما علمت ان مواد البناء في اواسط العراق سريعة التفكك والدثور . فالباني بالطين والآجُرّ مهما كانت مهارته ، ومهما كان من طموحه واجادته في الهندسة والزخرف ، لا يتمكن من تشييد الصروح التي يضمن لها طول البقاء الصلدُ الضخم من الحجارة . اما اللبن فهو مثل العامل باللبن — هو من التراب ولا يلبث ان يعود ، مثل الانسان ، الى التراب . لا خلود في غير الجلمود .

واذكر كذلك ان لبنة بابل التي لا تزال تشهد على مهارة صانعها وبانيها في عهد نبوخذنصر ، والتي لا تزال في حائط المعبد وشارع النصر ، في ما اكتشف من المدينة الكلدانية القديمة، كما كانت يوم اخرجت من النار منذ

الفي سنة ويزيد ، ان تلك اللبنة امست من التقاليد المطوية ، والذكريات المنسية ، في مصانع الاجرّ بالكاظمية وببغداد . فقد تطورت صناعة الاجُرّ في العراق تطوراً سلبياً . لا اعني بهذا انها رجعت القهقرى ، بل اعني انها سقطت سقوطاً مفجعاً . والبرهان على ذلك في ما نشاهد من انواع الاجر القديم والحديث ، او بالحري في المقارنة بين لبنة بابل ولبنة طاق كسرى وبين لبنة بغداد اليوم .

ومما يدعو للتفكر والاعتبار ان هذا التطور المعكوس دخل على شعب البلاد ، في بعض نواحي الحياة ، كما دخل على اجرّه . فلا عجب اذا قال العالِم الاثري : هات اللبنة العراقية وخذ الحديث عن اهل الزمان الذي صُنعت فيه .

وهاك بعض الحديث . كان البابليون مثلاً يهتمون اهتماماً عظيماً بالزراعة والري ، وكانت اللبنة البابلية في منتهى الجودة والمتانة . ثم عرا الزراعة شيء من الاهمال في عهد الساسانيين ، وغدت اللبنة الفارسية دون البابلية صنعاً واتقاناً . ثم جاء العرب ، فدخلت الزراعة — وصناعة الاجر — في دور الانحطاط .

لا نكران ان بعض الخلفاء العباسيين كانوا يعتنون بالزراعة عناية تذكر ، ويستحبون من البناء ما كان فسيحاً ، وما اتسعت في طول بقائه فسحة الامل . ولكن اللبنة التي كانت تُصنع في زمانهم هي دون اللبنة الكِسْرَوية فضلاً عن البابلية .

مسكينة هذه اللبنة العراقية العصرية — هذه اللبنة النضاحة المتملحة . فما كان بامكان حتى الخلفاء العباسيين ، اولئك الخلفاء الذين بذّروا اموال الدولة في بناء الجوامع والقصور ، كما بعثروها في الحروب ، ما كان بامكانهم

ان يجبروا صانع الاجر على ان يستخرج من اللبنة كل ما فيها من الملح . او انهم جهلوا هذا الامر ، وما علموا ان ملح الارض ، في صناعة الاجر على الاقل ، هو غير ما تصفه به الامثال . هو يُفسِد ، ولا يصلح . وهذا هو السبب الاول في درس اثار بغداد المشهورة والمحائها ، الا القليل منها .

كان البابليون يحسنون ، ولا شك ، استخراج كل الملح من الاتربة التي يستعملونها لصنع الاجر . وهذا هو السر في دوامها سليمة اكثر من الفي سنة . فالملح في اللبنة يجعلها عرضة لفعل العناصر ، اي نضاحة . وانك لتراها في ابنية بغداد اليوم تنش بالماء ، فيذوب تدريجاً ما فيها من الملح ، فتبدو بنخاريبها كقطعة من الاسفنج المتحجر . وتستمر هذه الحال حتى تتفتت اللبنة ، فيتداعى الجدار ، ويسقط البناء .

ولماذا لا تصنع اليوم اللبنة الشبيهة بلبنة بابل القديمة ؟ سألت هذا السؤال احد اصحاب المصانع خارج الكاظمية فقال : « هذا التراب من كرم الله ، واللبنة منه ، وهي خير ما يصنع ، والحمدلله » قلت : « وكم هي مدة الاشتواء ؟ » فقال : « قدر ما يشاء الله . حيناً سبعة ايام ، وحيناً عشرة ، وحيناً خمسة عشر يوماً ، وفي بعض الاحيان لا يشتوي قطعاً . سبحان الله ! »

كانت النساء العاملات في محفر كبير في جوار الاتون يمزجن ركام التراب بالماء فقال لي وانا انظر اليهن وارقب عملهن « التراب والماء لا غير » . ثم انتبه فادار بوجهه الى الاتون وكمل كلامه قائلاً : « والنار — التراب والماء والنار . وكلها من كرم الله ، سبحانه وتعالى . »

قلما اجتمعت ، في رحلاتي كلها ، بمن هو اكثر لطفاً ، وادمث خلقاً واجمل تقوىً وورعاً من هذا الرجل . وهو ولا شك شيعي من الكاظمية ،

قلما تجد مثله في الشرق . هو رجل قديم الايام ، قديم اللسان ، قديم العقيدة والايمان . هو رجل من القرن العاشر ، احد صناع الأجرّ في زمن العباسيين ، عاش الف سنة فلطفته الايام ، وورعته الليالي . ثم استأنف صناعته في ظل المآذن والقباب ، في جوار الكاظمين رضي الله عنهما .

وقد زرت خارج بغداد مصنعاً للاجر حديث البناء والادوات ، صاحبه اسرائيلي من هـذا الزمان — عصري عمراني ! فهو يشعل في اتونه زيت النفط ، بالضغط البخاري ، ويصنع الاجرّ بالمكنات ، ويرسل نموذجات من التراب — مكّن كلمته هذه بايماءةٍ فيها الرضى عن نفسه والفخر بها — الى اوروبه ليفحص فحصاً كيماوياً . ثم قال : « نعم ، اننا نلجأ الى العلم ، لننتفع به . ولكن العلم لا يزيد الارباح في العراق » . ثم سألته سؤالي بخصوص اللبنة البابلية ، لبنة نبوخذنصر ، وهي المثل الاعلى في هذه الصناعة فقال : « كله يتوقف على التراب والملح . في بعض الاماكن يكثر الملح في التراب ويقل في غيرها . لذلك نرسل النموذجات منه الى الاختصاصيين باوروبه ... اظن ان الملح يقل في التراب في جوار بابل والحلة ... لا يا سيدي لا نستطيع ان نستخرج كل ما في التراب من الملح ، لان ذلك يقتضي نفقات كبيرة . والناس لا يرغبون بغير الاجرّ الرخيص السعر . »

ان المسألة اقتصادية زراعية . فاللبنة لا تتحسن الا اذا زيد بثمنها ، والزيادة بالثمن غير ممكنة الا اذا ازدادت الثروة في البلاد . لذلك ترى الحكومة العراقية باذلة جهدها في تحسين الزراعة بتحسين عوامل الري . اذ ذاك نعود الى الزمن البابلي — الى عهد نبوخذنصر الزراعي — فنستغل الارض بكل ما لدينا وبكل ما فيها ، ونثري ونبني البيوت التي لا تنضح

لبناتها ولا تذوب ، البيوت التي تدوم اكثر مما دامت قصور الخلفاء العباسيين لله اولئك العباسيون ! فقد ابتغوا المجد في الدنيا وفي الآخرة ، وخصوصاً في الدنيا ، وما ادركوا ان ما ابتغوه موكول باللبنة لا بالدينار ، وبأقنية الري لا باقنية الحياة الحريمية ، وبالمحراث لا بالسيف . بل هو موكول ببناء العقول اكثر منه ببناء الدور لاسترقاق العقول وسجنها ، او لاستخدامها في سبيل الخليفة ولذاذاته .

بذور المزارعين

كل عملٍ يساعد على نمو قوى الانسان الحيوية وحفظها جسدية كانت او عقلية او روحية وعلى حصر لوازم الحياة فيما يتطلبه الناموس الطبيعي فقط هو عمل صالح شريف

.....

الحكيم من صار الى غرضه دون ان يلوي على شيء مما حوله من اشواك الضغائن والاحقاد . ومن اشباح اللؤم والفساد

ارز لبنان

هذا المقال مقتطع من « قلب لبنان » الذي لم ينشر بعد . و « قلب لبنان » هو كتاب رحلات ووصف لمناظر هذا البلد ولتقاليد اهله . وقد حال الموت بين الكاتب وبين « قلب لبنان » فلم يستطع ان ينجز منه سوى ثلاثة ارباعه

رفعت حجراً من حجارة الطريق الى فمي ، فقبلته ورعاً حامداً آملاً ، قبل ان دخلت الظلال القدسية .

واستغفرت الارز لامتهاني حرمة عزلته — هذه العزلة الفريدة في اعالي الجبال ، فوق وُكَر النسور ، وراء حُجُب الآفاق .

استغفرت الارز لاني جئت اشق ستار كعبته ، جئت استكشف مكنون سره .

◇◇◇

إيه ربة الاشجار ، وسيدة الجبل الجبار ، انت الرافعة اعلامك الخضراء ، بين هذه الصخور الدكناء ، بنت الجديدين ، واخت القمرين ، حدثيني . حدثيني ، وعلميني ، وارفعي بي الى علياء ايمانك .

فقد جئتك مستعلماً ، مسترفعاً ، مستمداً من ينبوعك العالي القوة والحكمة .

◇◇◇

حدثيني عن رياح الشمال .

— هي تجيئني مولولة نائحة ، فاوقفها لتستريح ، فتستحيل انفاساً عطرية .

حدثيني عن الغيث اذا همى .

— هو يرقص على الصخور امامي ، فتقهقه هازئة ، ويضرب على اوتار قيثارتي ، فتُسمعه اغانيَ البلابل والامواج .

حدثيني عن العواصف .

— هي تصعد هائجة من الاودية ، وتهبط مجلجلة من الافاق ، فتدق حولي طبولها ، فافتح لها قلبي ، فتدخل ثائره . ثم تتحول اصواتها ، بين ذراعي ، الى اصوات البوق ، والمزمار والناي ، ثم تسكن وتنام ، تحت اجنحة السلام .

حدثيني عن الثلوج .

— هي حصني في الشتاء ، ودرعي في الربيع ، فتفت من ساعد العاصفة ، وتلطف حرارة الحب الآخذ بالازدهار . وهي في الصيف أم جذوري ، ترضعهن تحت التراب وبين اصول الصخور ، فيبتهج قلبي ، ويرتفع رأسي ثناءً وحمداً .

حدثيني عن السيول .

— هي تعبث في بيتي وتعيث ، فتعري مني الجذور ، فانثر فوقها ريشي في الصيف والخريف . وقد تعاونني الايام ، فتحمل الي التراب على جناح الرياح ، فألبس جذوري ثوباً جديداً .

حدثيني عن الصخور .

— هي المحدثة قبلي وبعدي . منها ترابي ، واليها مصيري . وهي في حياتي قرة عيني ، وزينة نفسي . بل هي هيكلي الخالد ، العامر اليوم بي ، السائل غداً عني .

حدثيني عن السحب .

— هي حجابي وجلبابي ، وهي بخور محرابي .

والفصول .

— الشتاء سميري ، والربيع سفيري ، والصيف قيّمي الندي ، والخريف كاهن معبدي .

حدثيني عن الجديدين .

— النهار جليسي ، والليل ضجيعي ، وللاثنين يد في قِدَمي وأجلي .

وعن القمرين .

— الشمس مديرة اسبابي ، والقمر حاجبٌ في بابي . الشمس تطعم اخضراري ، والقمر يحفظ اسراري .

والنجوم .

— هي ايدي الله الورديةُ الفضيةُ الذهبيةُ البنفسجية . هي هي ايدي الله ، تعطي ولا تسأل ، تنثر ولا تستعيد .

هي ايدي الله تحمل الي كل ما فيه جمالٌ وابتهاجٌ وسكينةٌ وهدى .

ايدي الله — النجوم — ربات الشعر والفنون ، ربات الخيال الصَّفِيِّ والغبطة الشجية .

النجوم هن الحسان اللواتي ينشدن في ظلال منسكي ، وهن العذارى اللواتي يرقصن في معبدي .

النجوم هن الوفيات الصفيات ، البعيدات القريبات ، اللواتي يزلن وجومي ، ويملأ من كلومي ، ويعلمنني الابتسام ، ونسج الاحلام .

٥ ٥ ٥

أرزّ جبالي ، أرزّ اجدادي ، ان لياليك ليالي ، وان نجومك نجومي .

جبل طارق

هذا فصل من كتاب « المغرب الاقصى الاسباني » الذي لم يُنشر بعد . وقد ألفه الكاتب بعد ان قام برحلة الى المنطقة الاسبانية في مراكش سنة ١٩٢٩ دامت ما يزيد على الشهرين . وفي هذا المقال وصف بليغ لمعقل جبل طارق العظيم . هذا الحصن الذي شاهد ولا يزال يشاهد اعظم صراع عرفته الامم المتحاربة .

من طنف غرفتي في فندق الصخرة ، اللاحق ظهره بصدر الجبل ، تحت هوله الخالد ، أطللت على مشهد رائع من مشاهد الجمال الطبيعي ، والعظمة الدولية . فمن الصنوبر الساحق النازعة أغصانه القديمة الى الفوضى ، الى الازاهير تحته في جنائن تتغنى بالوفر والنظام ، الى ساحات معبدة فسيحة ، للعب الـ « تنيس » ، الى طريق اسحم أملس بين البلدة وطرف الصخرة الشرقي ، مظلل بالاشجار مزدانة جوانبه بالازاهير المتدلية عرائشها من الجدران العالية — كل ذلك في انحدار غير انحدار الجبل الى الفندق ، في انحدار خفيف لطيف الى البحر .

وهناك على شاطىء البحر — الطبيعي الاصطناعي — في الارض التي هي من الجبل والارض الردم — مظهر من مظاهر العمران المدفعي ، والعظمة الصناعية البحرية ، المجردة كلها من جمال الطبيعة أو الفن . هناك رمز العلم

والقوة . هناك الارصفة الممتدة الى البحر ، المكعبة والمثلثة فيه ، كأنها قفايا هندسية . وهناك أبراج وجسور وعمد من حديد للبرق والدفء والنور ، ولرفع الاثقال ونقلها . وهناك المخازن والمستودعات ، والمرافىء والاحواض ، والمكاتب والمختبرات . وهناك المصانع لترميم السفن ، وللتنظيف والتجديد . وهناك المدرعات والغواصات والطرادات ، وقد عادت من نزهة في البحر المتوسط ، وهي متأهبة لدرء اخطار الحرب ، أو لخوض عبابها .

هي بلدة قائمة بنفسها . وهي دوماً في اشتغال : نار محركاتها لا تخمد ، وأنوارها تصل الشفق بالفجر . هي صخرة الدولة البريطانية . هي هي جبل طارق عظمتها البحرية .

أما البلدة الاخرى ، جبل طارق السوقة ، فهي في الناحية الغربية ، بين الباب الشرقي والمرفأ التجاري . وهي في سوقها الكبير الاوحد ، وجاداتها القصيرة الضيقة المتفرعة منه ، لاحقة هاهنا بسفح الجبل ، آوية هناك تحت صخوره ، ومستلقية على الساحل وعلى الارض الردم الذي أضافها الانكليز اليه

في هذه البقعة المنقبضة المنبسطة معاً يقيم سبعة عشر الفاً من الناس ، من السوقة ، وفيهم التجار والصيارفة وأصحاب المقاهي والملاهي والحانات من الامم الغربية والشرقية ، وهم يتراطنون بالاسبانية والانكليزية ، ولا يحسنون احداهما . لا يحسنون غير اللغة التي فيها رزق يومهم ، ولذات الليالي .

أهل جبل طارق ناس من جنس خاص بالصخرة . لا اسبان هم ، ولا انكليز . لا وطنية لهم تحملهم على المشاغب والفتن ، ولا قومية تورثهم دائي الكد والاستعمار . هم حقاً بريئون من اليقظات القومية ، والنهضات الوطنية . فلا يكلفون أنفسهم فوق طاقتها في عمل من اعمال الحياة ، ولا يكلفون الا

اليسير اليسير من الضرائب .

يسميهم الانكليز « عقارب الصخرة » . وانهم ، في هـذا الزمان المثقلة فيه كواهل الامم بالضرائب ، لاسعد « عقارب » الدنيا شرقاً وغرباً . فلا عجب اذا كانوا لا يكترثون، مثل صنف من الفلاسفة ، بخزعبلات السياسة، وأباطيل السيادة والمجد . اذا سألت أحدهم : أأسباني أنت ؟ قال : لا . أأنكليزي انت ؟ اجاب : كلا . وما أنت ؟ أنا جبلطارقي Gibraltarian . يقول هذا وهو لا يعلم لماذا سمي الجبل باسم طارق ، ولا هو على شيء من مزايا طارق وجبله .

فان كنا نرثي لحال من لا وطن ولا قومية لهم ، فالجبلطارقيون يرثون لحال من يجاهدون في سبيل الاوطان .

ومن أين جاء الجبلطارقي ؟ او انه ما جاء من مكان عبر البحر . هل نشأ اذن في ظل هذه الصخرة مثل الحيوانات القديمة ؟ هل هو من نسل الرينوسود او القردة المنقرضة ؟ ليس في تاريخ الحيوان ما يثبت حقيقة هذا الافتراض أو ينفيها . اما تاريخ الانسان — تاريخه الحديث — فهو ينير ويعين . هو يقول ان الاسبان ، سكان هذا الجبل قبل أن احتله الانكليز في القرن الثامن عشر ، هجروه بعد ذلك الاحتلال ، ووقفوا في هجرتهم في منتصف الطريق ، بينه وبين الجزيرة ، فأسسوا لهم هناك البلدة التي تدعى اليوم سان روكه San Roque

ولا تزال سان روكه ، مثل شقيقتها لالينيا La Lina التي هي على الحدود الانكليزية الاسبانية — وراء الصخرة — لا تزال مأوى لبعض أولئك النازحين من جبل طارق ، وأولئك الذين لا ترغب بهم السلطة المحلية ، أي المتشردين والفقراء اللاحقين بهم .

وبعد أن نزح الاسبان من جبل طارق حل محلهم قوم الطليان . جاءوا على الاخص من جنوا ، فرحب الانكليز بهم ، فأقاموا في ظل الصخرة آمنين ، وتاجروا مطمئنين ، وتناسلوا فرحين ، فكانوا الاجداد لسكان اليوم .

قلت ان في جبل طارق بلدتين ، بلدة هؤلاء (مراقبة) ، وبلدة الدفاع البحري البريطاني ، وليس بينهما خيط صلة من الحرير او الشعر . بل ان البلدتين تختلفان في مزية أولية جوهرية . هي النطق الذي يميز الانسان عن الحيوان . فالنطق كله ، بعجره وبجره ، عند الجبلطارقيين ، والصمت كله ، بذهبه ونحاسه ، عند الجندية والبحرية ، ومن يلوذ بهما من الانكليز . فان كنت طالب علم ، ولا يهمك مقدار ما فيه من الصحة ، فدونك والشارع الكبير الاوحد ، تحدث التجار فيه وأصحاب الحانات . وان كنت تبتغي التحقيق والتدقيق فيما تسمع أو في موضوع يصله ولو خيط من العنكبوت بالصخرة الامبراطورية وأسرارها العسكرية ، فلا تدن من أحد العاملين في تحصينها وادارتها فانهم ومن يلوذ بهم لا يحسنون على الاجمال غير لفظتين اثنتين : لا أعلم .

خرجت صباح يوم أمشي ، ولا هدف غير ما يكشفه الطريق . فرأيت شجرة بين الاشجار لا أعرف اسمها . وانا في هذه الحال على شيء من شواذ الطبع فاغتاظ لجهلي ، ولا أقف عند حد في فضولي . قلت : أغتاظ ، ففرطت . فان شجرة أجهل اسمها بين اشجار أعرفها حيثما أشاهدها ، لشجرة مكربة مضنية . انها لتضنيني . أقول ذلك بلساني الشرقي واحساسي الموروث . واما بلساني الغربي الذي تمرن على التدقيق في التعبير ، واحسن شيئاً منه ، فأقول : انها لتفسد النزهة علي . ولست في ذلك مفرطا أو مفرطا .

وها كها متحدية بين اشجار الصنوبر والسنديان . هي شبيهة بالسنديان وليست منه . وما هي كشجرة من عوامل الدفاع أو من أسرار الحصون والقلاع . فلعل هذا الضابط يساعد في كشف غمي . صبحته واعتذرت ، ثم سألته قائلاً : « من فضلك ، ما اسم هذه الشجرة ؟ » فقال بلهجة مزنقة : « لا علم لي بالاشجار » . ثم سألت رجلاً في ثوب مدني أنيق ، فتأسف وأجاب جواب الضابط .

بعد ذلك بان لي في أعالي الجبل شيء من البناء غريب أنساني الشجرة . وكانت امرأة تدنو اذ ذاك مني ، وفي وجهها نبأ التقوى والصلاح ، فسألتها عن ذلك البناء ، فأجابت بلهجة الضابط : « لا ادري » وهؤلاء الجنود الاربعة ، وقد خرجوا على ما يظهر متنزهين . لا بد أن يكون واحد منهم . ذاك الرقيق الاهاب الضارب الى الاصفرار ، عالماً بعلم النبات فسألته اسم الشجرة . وكنت وأسفاه مخطئاً في ظني .

ثم سألت رفيقه أن يقول لي أي يوم وصل الاسطول الى جبل طارق ، فسمعت للمرة الرابعة أو الخامسة كلمة السر : لا أعلم .

اننا لفي جبل الصمت والتكتم . ولكن الحياة تأبى الاطلاق ، وتنفر من القياس الواحد فلا بد أن نلقى حتى في المقابر لساناً ناطقاً . وها هوذا تحت الشجرة التي كادت تفسد علي نزهة ذلك الصباح .

كان الرجل يحرق بعض الاوراق . فسلمت ، فرد السلام بانكليزية سليمة ، ولهجة كريمة . وقد أجاب على سؤالي الاول جواباً استبشرت به . فما هو من الجندية ، ولا من البحرية ، ولا ممن يلوذون برجالها أو بعيالهم . انما هو صاحب مغسل للجنود . وقد كان في تلك الساعة يلهو بحرق الجرائد

التي تجيئه من بلاده .

فقال وهو يزيد في نارها : تجيئنا جرائد لندن مرة واحدة في الاسبوع ونحن نقنع بذلك . لا نريدها أكثر من مرة كل سبعة ايام . أهلنا هناك « في انكلتره » يشقون كل يوم بطبخة من الخوف والذعر — الحرب على الابواب — تطبخها لهم الصحافة صباح مساء . ونحن هاهنا يجيئنا الخوف والذعر دفعة واحدة مرة كل اسبوع . فهل تصلح هذه الجرائد لغير النار . احرقها ، وبرد — خفف عنك .

وعندما سألته اسم الشجرة ادهشني بثقافة عالية . فقد أعطاني الاسم وشفعه بنادرة تاريخية ، ومثل لاتيني رواه باللغة الاصلية . عجيب أمر هؤلاء الانكليز ، فانه يبلبل الباحثين الراغبين بالحقيقة فيهم نقداً وتقديراً .

وقفت معجباً بذلك الرجل كل الاعجاب . أمثقف في جامعة أكسفورد وصاحب مغسل للجنود بجبل طارق؟ سعدت دفعة واحدة بعلمه كما يشقى هو بجرائد لندن . وقانا الله الخير اذا طمى .

قال صاحبي زاده الله علماً وفضلاً : اسم هذه الشجرة لاتيني هو ملتا Multa ولتسميتها قصة قديمة هي ان بعض الجنود الرومانيين في عهد يوليوس قيصر ، عصوا ضابطهم فقاصصهم قصاصاً قرنه بالتجويع . اعتقلهم في معتقل بُني بين أشجار مثل هذه الشجرة . وحرمهم الاكل أياماً . وكانت أغصان الاشجار تتدلى في المعتقل بينهم وهي تحمل هذا الحب ثمرتها (هو شبيه بحب الدوم) فتناول منه أحد الجنود وأكل مجازفاً بحياته ، ففرح بمجازفته ، فاقتدى به اخوانه ، فأكلوا من تلك الثمار واستمرؤوها جميعاً ، وهم يضحكون من الضابط الذي حاول تجويعهم . اذ ذاك نطق الحكيم فيهم

بالكلمة التي ذهبت مثلاً : نيمو ملتاريوم الخ ، أي ليس بين الناس حكيم هو دائماً حكيم . وسميت الشجرة ملتا .

ومن مدهشات ما شاهدت في ذلك الصباح راع ولا كالرعاة — شاب في ثوب افرنجي نظيف ، يتأبط كتاباً ، بدل ان يحمل القصب أو الناي ، ويسوق قطيعاً من المعزى . هوذا الراعي العصري المتمدن ! كتاب يذهب بالناي — علم يذبح الفناء والهناء !

وهناك من الاشجار ما يذكر بالغابات والبساتين اللبنانية — بصنوبر المتن ، بزيتون الشويفات ، بسنديان الاديرة ، بتين عمشيتا . رموز واشارات ، لا بساتين وغابات . على ان الرمز وجماله السابغ يجتمعان في العرائش المنورة بشتى الالوان ، الارجوانية والبنفسجية ، والحمراء والبيضاء . هي ذي عرائش ال « بورغنفي » ومجد الصباح Morning glory والدفلى والياسمين ، تحمل الى طيب بيروت في ليالي صيفها . ومجد الربيع منعشاً فوق اسوار بيوتها والبساتين

أمعنت في الطريق المفروش بالاسفلت ، المصعد في الجبل ، فمررت ببيوت وضيعة جميلة تحاول الاختباء بين اشجار ال « ملتا » والملول والصنوبر . هي بيوت للضباط البريين والبحريين . وهذه أكواخ لاصقة بالصخور الشاهقة يقيم فيها بعض الفلاحين ، وهم يكتفون من المهنة بتربية الدجاج وبيع البيض الى الجنود . وهاك ديراً بمدرسة للراهبات فوق الطريق ، ومجموعة تحته من البنايات الكبيرة ، تصل بعضها ببعض الجسور والاروقة ، هي المستشفى العسكري .

دنوت من المكان العالي امامي ، القائم فوقه بناء ينشر علماً سرّيّ الخبر لمثلي . هو مركز الانباء والاشارات البحرية ، يتبادلها والسفن الحربية والتجارية ، المستأذنة وهي في المضيق بالدخول الى الميناء .

وصلت الى الثكنة العسكرية عند منتهى الطريق في طرف الصخرة الجنوبي الغربي ، المشرف على الناحية الشرقية منها — على جون « كاتالان» الجون الجميل الذي رأيته بعدئذ من الباخرة المشرفة . اوقفني الحرس . لا مرور عند هذا الحد بدون اذن من الحكومة .

عدت ادراجي بشيء من التعريج ، فوصلت الى نفق في صخرة ضخمة ، ووقفت عند كتابة محفورة الى جانب المدخل ، فاذا هي تقول ان هذا النفق فتحه وأتمه تبرعاً جنود جلالة الملكة في سنة ١٨٤٢ ، ثم بلهجة شعرية تندر في الانصاب والآثار الانكليزية :

« كذلك كان ، وكذلك سيكون » « هو الجندي البريطاني »

« الشجاع في الحرب » « المحب في ايام السلم للعمل والنظام »

دخلت النفق المؤدي الى أرض وراء الصخرة مهدها كذلك اولئك الجنود ، فبنيت فيها الثكنات . هناك في تلك الساحة ، تحت جفن الجبل وفوق عين البحر ، تعصف الرياح على الدوام — الرياح الشديدة الباردة حتى في الصيف . وقد كانت في أشدها ، على ما أظن ، صباح ذاك اليوم . فوليتها ظهري — رحت معها كما يفعل صاحب الشراع ابان العاصفة — فاذا بي عند الرأس الذي يسرع في انحداره الى البحر من نواحيه الثلاثة الشرقية والغربية والجنوبية . واذا بي أمام صف من الخنادق المبنية بال « أسفلت » وأدراج اليها ، وأروقة وراءها وبينها ، وأبواب الى داخلها ، حيث تكمن المدافع التي تبرز خياشيمها من نوافذ ترى البحر ولا يراها .

وبين هذه الخنادق فوق سطوحها ، مصاطب مصونة لمدافع كبيرة أخرى ، دهنت بالدهان الازرق جزافاً .

كذلك كان، و كذلك سيكون. صدقت الكلمة المحفورة الى جانب المدخل لذاك النفق. فان اسباب الدفاع بالامس لا تصلح اليوم، وقد لا يصلح في المستقبل ما كان منها صالحاً في هذا الزمان. وهذا الصالح اليوم هو في أماكن أعلى من هذا المكان، تحت القنن، وفي بطن الجبل. هناك خنادق ومصاطب ومدافع جبارة، لا تعرف ولا ترى، لا من البر، ولا من البحر، ولا من الجو.

اما ما يرى في تلك المنحدرات الحادة الزوايا من البقع البيضاء الكبيرة، فهي موضوع حدس وتكهن للمسافرين في السفن التي تعبر المضيق. فيقولون: هي جدران للطريق المؤدي الى رأس الجبل. ويقولون: هي بقع صخرية جرداء تظهر في بياض سابغ، فتخفي ظلالها على الناظر اليها من عرض البحر.

أما الحقيقة فهي غير ذلك. جبل طارق صخرة تقل فيها الينابيع، ومياه البلدة والحصون، قديماً وحديثاً، تجمع من الامطار في الآبار. أما آبار اليوم فهي أحواض عمومية كبيرة تتوزع منها المياه الى البلدتين، التجارية والعسكرية، ومن اين تتسرب اليها مياه الامطار؟ هوذا السر في تلك الجدران المبنية من الحجر الكلسي المنحوت بناء محكماً، على صدر الجبل، فتتلقى الامطار، وتحملها الى القنى في أسفلها المتصلة بالاحواض.

رأيت العمال في احدى الساحات الصغيرة بالبلدة يحفرون خنادق او اكواخاً يلجأ اليها الاهالي من الغزوات الجوية، اذا وقعت الحرب. وبينما هم يحفرون عثروا على آثار القنوات القديمة التي بناها العرب للغرض نفسه. فما تغير في جمع المياه وتوزيعها غير الطريقة شكلاً واتساعاً.

جبل طارق — كم قامت حوله ولاجله من الحروب والحصارات منذ وطأته اقدام العرب بقيادة طارق بن زياد (٧١١ م) الى يوم استيلاء

الانكليز عليه المرة الاخيرة (١٧٨٣) . كان يدعى قبل الفتح العربي جبل أليبه — الاسم فينيقي — ويوم احتله طارق باثني عشر الفاً من رجاله العرب والبربر كان في حوزة الغوط . فدارت بينهم وبين المحتلين رحى الحرب وفي يوليو من سنة الفتح ، على شاطىء النهر القريب من المكان القائمة فيه اليوم مدينة شريش Gereg كانت الواقعة الفاصلة ، التي دامت ثلاثة ايام ، وانتهت باندحار الغوط وتقدم العرب شمالا وغرباً .

وقد حصن طارق الصخرة بما بنى من القلاع والابراج على الشاطىء الغربي وفي اعالي الجبل . منها البرج المربع الذي لا يزال قائماً هناك . تلك الجدران الدكناء ، بين فسحات من الاخضرار وتحت اطناف من الصخور ، وان تحدث الرواسي والسنين ، وظلت سليمة بعد كل ما شاهدت من حرب وحصار ، ان هي الا شهيدة الزمان ، وفدية التخاذل والنسيان .

استمر حكم العرب في جبل طارق ، على اختلاف عهودهم ودولهم ، سبعمائة وخمسين سنة . فانتزعه منهم الاسبان سنة (١٣٠٩ ثم فقدوه . وفي سنة (١٤٦٢) كان الفوز الاكبر لهم ، فاخرجوا العرب منه ، وزادوا في تحصينه ، فظل في حوزتهم ، بشيء من التقطع ، اكثر من مائتي سنة .

اما استيلاء الانكليز عليه فقد كان للمرة الاولى في الحرب الاوروبية (١٧٠١ — ١٧١٤) التي اثارها ملك فرنسا الكبير لويس الرابع عشر .

ما أتفه الامور الظاهرة التي كانت تقام من اجلها الحروب في الماضي ! ولكنها كانت تنطوي على غيرها ، وهي الجوهرية . هي هي المطامع الاقتصادية الاستعمارية بعينها . اراد لويس الرابع عشر أن يبسط نفوذه على اسبانية باقامة حفيده البرنس فيليب ملكاً عليها خلفاً لشارلس الثاني ، فقامت

انكلتره تتويل لاختلال التوازن الدولي الاوروبي، فألّفت حلفاً منها ومن النمسا وهولنده والدنيمارك والبرتغال لمحاربة الفرنسيس والاسبان . دارت رحى الحرب في اوروبا بضع سنوات، ثم امتدت الى اسبانية، فاحتل الاحلاف قادس ، وقررت القيادة العامة ان تحتل كذلك جبل طارق . فاطلقت القنابل عليه في ٢٣ يوليو سنة (١٧٠٤) ، واستمر الحصار ستة اشهر فتكلل بالنصر في ١٠ مارس سنة (١٧٠٥) للمحاصرين .

كانت الجنود الهولندية والانكليزية مشتركة في ذلك الحصار . ولكن الاميرال الانكليزي روك Rooke ضرب الضربة الاخيرة الفاصلة، وامر، بدون امر من لندن، بأن يرفع فوق الصخرة العلم الانكليزي، فقبلت لندن بالامر الواقع!

بيد ان ذلك الاحتلال لم يدم طويلاً، في النصف الاول من القرن الثامن عشر، لا للانكليز ولا للاسبان، الذين حاصروا الصخرة فاستعادوها، ثم فقدوها . وظل الاحتلال الانكليزي متقلقلاً حتى الحصار الاكبر براً وبحراً (١٧٧٩ — ١٧٨٣)، الذي يعد من اعظم حصارات التاريخ . ذاق الانكليز فيه اشد ويلات الحرب وامرها . ومع ذلك، وبالرغم عن مساعدة فرنسا، ما استطاع الاسبان ان يزحزحوهم من مراكزهم المنيعة . كانوا والصخرة صنوين . فرفع المحاصرون الحصار، وعقدوا والمحاصرين معاهدة صلح في ٦ فبراير سنة (١٨٨٣) .

منذ ذلك اليوم الى يومنا هذا استمرت سيادة الانكليز في جبل طارق دون انقطاع ، وهي تزداد قوة وتمكيناً بما بنوا فيه من الحصون ، وبما حفروا من الانفاق ، وبما اسسوا من المرافىء وردموا من البحر ، وبما حسنوا اجمالاً في اسباب المناعة البحرية ، فغدت الصخرة امضى الحصون واعزها في العالم . وظلت كذلك حتى عهد السلاح الجوي الذي نحن فيه .

رسالة من كتاب

« رسائل امين الريحاني »

ان في رسائل امين الريحاني الخاصة التي كتبها الى الناس الواناً من الفن لم يألفها الادب العربي الحديث . وفي ما يلي رسالة منه الى والدته ، رحم الله الاثنين ، تريك امين الريحاني في شخصيته العائلية . وسنعمد الى نشر هذه الرسائل في كتاب خاص .

من الباخرة في ٧ كانون الثاني سنة ١٩٣٧ .

الوالدة الحبيبة ام امين حفظها الله وأمدّ بعمرها .

ما شعرت في سفرةٍ من سفراتي بما اشعر به اليوم . وقد حاولت ساعة وداعك ان اخفي الدمعة التي تكونت في طرف عيني على اني متيقن ، ويقيني هو بعض ايماني وأملي بالله ، ان ساعود اليك في الصيف القادم ، وساكون من اسعد الناس يوم اشاهدك بالفريكة وامتع عيني وقلبي بك — واكلفك بان تمسّدي ظهري ويدي[1] !

يا أم امين العزيزة — يا أعز اعزاء امين — اسمعي هذه القصة وهي من اغرب ما حدث وانا في نابولي . فقد زرت صديقاً طليانياً في ضواحي المدينة — زرته في بيته فكانت والدته في البيت وكان هو عند بعض اصدقائه .

(١) كانت تقوم والدته في تمسيد يده وظهره عندما كانت النوبة العصبية تنتابه .

فأرسلت اليه رسولاً تخبره بقدومي . واخذت هذه السيدة الشيخة تحدثني بلغة لا افهمها . هي مثلك الاّ انها اقل سناً منك . ولكنها مثلك ورعة تقية، غيورة غيرة دينية حارة . وهي رئيسة اخوية . جاءتني بصورة السيدة ، سيدة بمباي المتعبدة لها واعطتني اياها . فذكرتك وحفظت الصورة وانا مرسلها اليك الان . والسيدة الطليانية هي ايضاً مثل ام امين بالفريكة تجمع المال لاخويتها — « شحادة » مثلك يا ام امين ، يا ويل امين ! فقد هرب من الفريكة ووقع في الشرك في نابولي أعطيت باسمك ما اعطيتها : من رئيسة اخوية الفريكة الى رئيسة اخوية بمباي !! واخذنا الصورة الواصلة من طيه . فما قولكِ دام فضلكِ ؟

وصلنا صباح اليوم ٨ ك٢ سنة ١٩٣٧ الى مرسيليا وسنستأنف السفر هذا المساء — رأساً هذه المرة الى نويورك فنصل عندما يصلك كتابي هذا او بعد يومين من وصوله اليك .

شدي حالك ايتها الوالدة الحبيبة وليكن ايمانك بالله شديداً قوياً . فسيمتن علينا بالاجتماع كما اذن بالفراق ، سبحانه وتعالى .

سلمي على عفيفه وام يوسف . وعلى الجيران ومرشد ونافله . وعلى العمة ام ادمون واهل بيتها . وعلى كل من يسألك عني من الاقارب والجيران .

وهذه قبلات حارة لك ولسعدى من قلب

امين

التجديد المزيَّف

فصل من فصول الجزء الخامس من الريحانيات الذي لم يطبع بعد . وترى الكاتب في هذا المقال يُصدق قومه الخبر . فلا يحابي ولا يجامل .

ان في بعض كتاب مصر الجدد ، اولئك الذين في الطليعة ، من لهم في التجديد آراءٌ تكاد تنحصر في اللغة . او انها في أظهر حالاتها لا تتناول غير اللغة ، وتكاد تنحصر في هيكلها ، في عظامها ، في الالفاظ منها والصيغ .

وليس في هؤلاء الادباء الالمعيين من يجهل ، على ما أظن ، الحقيقة الكبرى في التجدد والتجديد ، وهي انها تشمل الحياة كلها الآلية والغير الآلية ، اي الجماد والنبات والحيوان والانسان وما فوق الانسان . أجل ، حتى في الصخور ، وفي السماء بين الشموس والنجوم ، يسود ناموس التجدد ، وبفضله وُجدت هذه السيارة القزَمة التي تدعى الارض ووُجدنا نحن الجبابرة فيها .

ليس موضوعي الآن الانسان الجبار في سيارته القزمة الملتحقة بقافلة الشمس . انما موضوعي فضل في زميل ونقص في دليل . والدليل مثل الرائد يصدق قومه .

قلت ان اولئك الادباء المجددين يعلمون الحقيقة الكبرى كما انا أعلمها ، لانهم يفكرون ، ولان عقولهم جيدة ، وهي فوق العقل العادي . ولكنهم ،

لسبب لا أدركه كل الادراك ، بالرغم من اني افكر مثلهم ، وبالرغم من ان عقلي مثل عقولهم فوق العقل العادي ، لا يرون ، على ما أرى ، أهم من اللغة العربية في هذه الحياة بل في هذا الكون الاعظم .

والذي يفجعني اكثر من كل فجيعة ادبية هو انهم يحصرون نظرهم في ظاهر اللغة ، في هيكلها ، في عظامها كما قلت ، ويظنون ان الميثاق القومي ، والسيادة الوطنية ، والعز والمجد والصولة والاقتدار ، تتوقف كلها على شيء من «حتى» . فالفضل في كينونتنا القومية هو للفظة جديدة يكتشفونها ، او لتعبير عربي مُضَري يعودون اليه ، والسبب في عدميتنا القومية هو غلطة نحوية او صرفية أغلطها انا ، او يغلطها من هم اكثر مني علماً في اللغة وآدابها .

اما روح اللغة ، وطريقة الفكر فيها ، وأسلوب الكاتب الذي هو صورة لشخصيته ، والحرية الذوقية في اختيار الاماكن بين الكلمات والسطور لهمساته وصيحاته ، ودمعاته وضحكاته ، وغمزاته ولمزاته ، والاختراع في معالجة المواضيع القديمة ليعطيها شيئاً من الجديد الذي هو خير من حلة مُفلوطية ، والمنطق في المجاز ، والعصري في الاستعارة ، والخروج في البلاغة والبيان من دور الاثار (كتب اللغة) كل ذلك هو عندهم في الدرجة الثانية او الثالثة من الاهمية اذا قيس بشيء من « حتى » .

والسبب في ذلك ، بالرغم من جودة عقولهم وسموها ، هو انهم (وهو بعض ما أدركه) سطحيون ، او انهم يعتقدون ان الحياة في ظواهرها ، وان الشكل الظاهر لا يدوم ولا يعزز الا بالدعوة ، وان الجهاد الحقيقي هو في حمل القلم — والسيف والترس — في سبيله .

اما ما في صفحات هؤلاء المجددين من الفكر الذي يتجاوز الظواهر ،

ويتجاوز كذلك المظاهر القومية الى شيء من الفكر العالمي، وما في صفحاتهم من التحليل النقدي والادبي، فليس من كتب اللغة ولا من الآداب العربية · هو من الاجانب — من الادب الافرنسي او الانكليزي ·

ولكنهم يأبون في هذا الزمان ، زمان السيادات القومية وتقرير مصير الشعوب ، ان يأخذوا عن الاجانب · وانهم اذا فعلوا المكرهون بما فيهم من فضل وتهذيب · وهم في حال الاكراه يلجئون الى حيل الاجداد ذوي الاذناب · فتراهم اذا أخذوا شيئاً عن الاجانب يحتالون على لون الجنسية فيه فيخفونه في ثوب عربي لا أثر للعجمة في تفصيله او في ديباجته · وهاكم الاسلوب ، وان كان مسلوباً من الاقدمين · وهاكم الالفاظ والتعابير التي فاتت حتى الاقدمين ·

وهذا هو التجديد المزيَّف ·

كأني باولئك الالمعيين يمثلون في وقت واحد وفي صفحة واحدة دورين متناقضين ، فيطيرون الى لندن او الى باريس ، ويعودون فير كبون الاظعان الى البصرة والكوفة · قد يسلم الرحالة في مثل هذه المجازفة وقلما يسلم الاديب · فقد يجيء في ادبه شيء من محاسن الادب الافرنجي خصوصاً في مظاهره التحليلية والانتقادية ، ولكنه يبدو مشوهاً خلال الديباجة العربية المتصنعة — وقل خلال التحذلق اللغوي — ويكاد في بعض الاحايين يختفي وراء ستار كثيف من الاغراب والتعقيد ·

اما الديباجة فانك لتجد فيها من الخروق ما هو نتيجة فكرة ثقابة من الفكر الافرنجية · والذي لا يدنو من الستار لا يرى الخروق فيه · والقارىء ، وان رأى الخروق ، خصوصاً اذا رُفئت اطرافها بحذق ، يظنها

مرسومة أصلاً في الحياكة ، وانها من محاسن الديباجة ، فيهتف معجباً بهذا التجديد .

ولكنه التجديد المزيَّف . ذلك لان « الديباجة العربية » قديمة جداً . وهي في متانتها — وخشونتها — تخفي ما وراءها من الجديد ، الا ما يبص منه في بعض الاحايين كما تبص النجوم الكبيرة في ليالي الشتاء المظلمة .

وهذا التزييف هو غالباً في تلك الالفاظ الجديدة والتعابير المجددة ، التي تبهر بعض القراء وتصرف الانظار عما فيها او وراءها من المعاني . هي تبهر كذلك بعض الكتاب وتستغويهم فيقلدونها . ولنا ان نشبه « دينار » اولئك المجددين بالنقود الشرقية « القديمة » المصنوعة في أوروبه والمعروضة للبيع في مخازن « الانتيكة » بالقاهرة ودمشق . الا ان الحيلة معكوسة .

أجل ان لاولئك الالمعيين شغفاً بالقاموس وبالاسفار الملتحفة بالغبار . وان لهم نزعة الاثري وليس لهم طمعه في الثروة . فتراهم ينقبون في اللغة المهجورة ، وتحت ردم ألانشاء اللولبي ، وفي مقابر المخضرمين والمحدثين ، ليظفروا بما يسمونه جواهر غاليات ، ولكنهم بعد ان ينفضوا عنها الغبار ويغسلوها لا يجدون تحت أنفاس الزمان المتجمدة غير الحصى فيشق عليهم ان تكون هذه نتيجة البحث الطويل والتنقيب ، فيثأرون لانفسهم من اللغة بأن يعيدوا اليها في يومها هذا الكهربائي « انتيكات » يومها النحاسي .

وكأني باولئك الالمعيين يقولون للقارىء : وسترى كيف يردد الكتاب في العالم العربي أجمع كلماتنا وان لم تكن فصيحة ولا صحيحة . وأني من هذا القبيل أجثو أمامهم وأستعير من صفحات آياتهم التبريك . فقد فازوا فوزاً مبيناً .

واليك مثالاً من هذا الفوز المبين . اليك أزف الحسناء المغتصبة عرش « فقط » التي تدعى « فحسب » . فحسب ! حسبي الله . قد فقست « فحسب » بمصر (وأكثر هذه البيوض اللغوية تفقس بذاك الصعيد الحار ولا غرو) فأعطاها الله والصحافة جناحاً ، فطارت فوق بادية التيه الى فلسطين وسورية وقطعت الجماد الى العراق ، وطوت البيد طياً الى الحجاز ، بل ركبت البخار والبحار الى أميركة ، أنا الرحالة المشهور اغبط « فحسب » على هذه الرحلات الموفقة

وخذ « جهود » التي لا يخلو منها ، في هذه الايام ، عمود من أعمدة الصحافة أو صفحة من صفحات المجلات . لست ادري أي المجددين المزيفين اكتشفها . ولكن جهده كان حقاً مثمراً . فهي تشاطر اليوم « فحسب » الشهرة والسلطان .

اني أسأل سادتي جهابذة اللغة : أليس الجهد الطاقة ؟ وهل يفرغ الانسان طاقاته في العمل مهما تعاظم أو في الاجتهاد مهما تسخف ؟ أو ليست « الجهد » شبيهة بالفضائل التي لا تجمع كالشجاعة والصبر مثلاً ؟ وهل هنالك من فرق قياسي معنوي بين « بذل جهوده » و « بذل شجاعاته » ؟

« جهود » و « فحسب » و « التمديُن » وغيرها من الالفاظ الجديدة ، أو المكتشفة جديداً ، أو المخترعة — أتعرف كيف يكتشفونها أو يخترعونها ؟ سأعطيك المثال .

خذ « لسان العرب » و « تاج العروس » ولا تنم ليلة قبل ان تقرأ فيهما عشر صفحات كاملات . ولا تباشر عملاً قبل ان تقرأ عشر صفحات اخرى كاملات ، فتصير بعد عشرة أيام جهبذاً لغوياً ، وتصير تحتقر من يقولون « فقط » وتزدري كل من يموت وليس في نفسه شيء من « حتى » .

وقد لا تكتفي بالمثال الاجمالي فتطلب الافرادي منه . حباً و كرامة .
أنت تعلم ان العامة تسمي الملحفة المعروفة حراماً . ولكن الكاتب المدقق والمسلم التقي يقولان : إحرام من أحرم الحاج أي لبس ثوباً غير مخيط . ولكن الاحرام عامي أيضاً . ولا سبيل الى معرفة ذلك والى صيرورتك لغوياً الا بقراءتك في « التاج » عشر صفحات كل يوم صباح مساء .

وهناك تكتشف الاكتشافات العظيمة . ومنها ان الاحرام مثل الحرام عامي ، وان الثوب الذي يلبسه المسلم يقال له : حريم !!

واذا كتبت مقالك في اكتشافك الجديد لتصلح لغة مئة الف من الحجاج كل عام ، وقيل لك : ان قد يلتبس على القارىء أمر الحاج في الحريم والحريم في الحج ، فلا تبالي . والا فكيف تصير لغوياً جهباذاً ؟

عفواً أيها الاخوان الادباء . عفواً أيها الزملاء الالمعيين . اني أرى فيكم أنتم ، لا في كتاباتكم ، ما يرفع شأن الشرق ويعزز القومية والعروبة فيه . اني أرى في شخصياتكم الشوّاقة ، وعقلياتكم الوثابة ، وطموحكم الادبي الروحي — أرى في هذه الاخلاق الجديدة العالية — لا في انشائكم وديباجاتكم البرهان الاكبر على أننا نحن العرب من الامم التي لا تموت ولا تُغلب

لذلك جئت أهدم ما تظنونه بنياناً كالهرم خالداً . ولكني أجثو أمام شخصياتكم اللامعة قبل أن أضع الفأس على اصول خزعبلاتكم اللغوية وترهاتكم الادبية .

تعال أيها القارىء بل أيها الكاتب الذي تردد كالببغاء كل ما تجيئك به الصحافة المصرية من الترهات اللغوية ، تعالَ أريك ما في الخزانة . قد اكتشفت على « المفتاح » في صناعة اخواننا المجددين . وسأطلعك على السر

في سحرهم ، فلا تقول بعد ذلك ان في تجديدهم تتزاحم الصناعة والحكمة والعبقرية . بل يمكنك بعد ذلك ان تمعن في « التجديد » فيقال حتى فيك انك جهبذ ، وانك عبقري .

إذن ، أصخ اليّ . بل أصخ الى الاصوات التي تُردد في وادي النيل وردد أنت صداها . قل : « الدراسات » بدل « الدروس » و « البحوث » بدل « الابحاث » و « الموضوعات » بدل « المواضيع » و « الاخصائي » بدل « الاختصاصي » . وإياك و « فقط » وإياك و « التمدن » ولا تتكلم عن جهد المرء وسعيه بغير الجمع ، وقل في « جيد جداً » أو « مقرف جداً » جيد وجيد جداً ، و مقرف ومقرف جداً .

فاذا حصرنا مثل هذا التجديد بصرف اللغة فقط ، واذا عرفنا القاعدة في الاجادة تجيئنا العبقرية طائعة صاغرة ، وتنصب الشهرة سرادقها في فناء دارنا اللغوية .

وهاك تمهيداً لذاك النعيم القاعدة في الجمع مثلاً : اذا كان الجمع المألوف (أي الذي أستعمله أنا وغيري من الكتاب الذين يجهلون اللغة) سالماً ، فدونك والقاموس فتش فيه على الجمع المكسر . واذا كان الجمع المألوف مكسراً فتيقن أيها الاخ العزيز أن عبقريتك لا تسلم ، وشهرتك لا تدوم ، إلا اذا استعملت الجمع السالم ، واذا كان الجمعان مألوفين مبتذلين فدونك وجمع الجمع وان كنت تتكلم عن ثلاثة أباعر لا غير .

أما في القسم الاول من القاعدة فتقول دماشقة مثلاً وسلاقسة وملاحدة بدل دمشقيين وسلوقيين وملحدين .

وفي القسم الثاني نقول : الكافرون والجاهلون بدل الكفرة والجهلة .

وفي القسم الثالث قل : الرجالات والاباعير والاحابيل .

واذا كنت لا تجد في القواميس وفي كتب اللغة جمعاً شاذاً غير المألوف المعروف المبتذل فاخترعه ولا تخشَ لومة الخنفشاريين .

اخترعه كما اخترعت هذه المجلة المتحفات . وما أدراك ما المتحفات . ان هذه المجلة الجليلة ، التي تجاوزت الاربعين من سنها ، والتي خدمت العلم والادب والتاريخ خدمات جلّى ، والتي تحايدت في عهدها الماضي كل ما يشتم منه التنطع الادبي والتحذلق اللغوي ، يستغويها أو يخدعها اليوم أبناء القاموس ، فتعدل عن اللفظة التي استعملتها أربعين سنة الى لفظة تقول فيها انها الافصح والاصح .

بعد أربعين سنة أدركت مجلة الهلال خطأها في « متحف » وجمعها «متاحف» فجاءتنا باللفظة الجديدة الصحيحة الفصيحة : «متحفة» متحفات .

اذكر اني كنت اقرأ في مجلة الضياء : متحف ومتاحف وقد قرأت أمس في المقتطف مقالة عنوانها : متحف الاسكندرية . ناهيك بأننا كلنا العامة والخاصة تعودنا أن نقول : المتحف كما يقول الحاج : الاحرام . فهل نقول اكراماً لتاج العروس : الحريم ؟ واكراماً للهلال المتحفة ؟

أما اذا كان اللغوي الذي استغوى صديقي محرر المجلة بهذه التحفة الطريفة يريد بها ما يتبادر للذهن من وجه الشبه القياسي بينها وبين مقبرة ، فانه حقاً عبقري . فكم من « متحفة » هي مقبرة ، وكم في المتاحف الكبيرة من مقابر الصناعات والفنون الجميلة والغير الجميلة .

المندوب الاسمى

هي ذي صيحة من صيحات الريحاني الداوية يلقيها في اذان ابناء بلاده لتوقظهم وتثير نفوسهم ، وتدفعهم الى الجد والعمل والنضال . وما كان ابلغ هذه الصيحات تقذف بها نفس الكاتب المتأججة !

والمقال هو فصل من الجزء السادس الغير المطبوع من الريحانيات .

رأيته في ساحة المدينة ، وسمعته يخطب في الناس ، فذكّر وقال : انا المشيّد ، انا المؤيّد ، انا اخو الخادم والسيّد .

ورأيته يمشي في الحقول ، وسمعته يقول : انا الحارث ، انا الزارع ، انا الجاني والشارع .

وها هو يصعد الجبال ، وينشد نشيد الابطال : انا الفاتح انا المعبّد ، اناء الحافظ والحامي . الصخور والوعور تُذلّل امامي ، والقُنن والسُحب مطايا احلامي .

وها هو يسير على موج البحار ويرسل صوته ترتيلاً : والمعجزات ، ورب الكائنات ان الارض لمن يسعى ، وان لمن يسعى السموات .

وها هو يطير في الفضاء المغيم ، ويهتف هتاف من ظفر بالنعيم : تحت ناظري يذوب الضباب وامامي تتبدد السُحب ، وحول جناحي تنبثق الانوار

هو الفكر العامل الغلاّب ، هو الروح الشامل الوهاب ، هو الناثر ، الناشر ، الثائر على الدوام ، يشعل النار ويشحذ السهام .

هو عدو اليأس والجمود ، ومفكك السلاسل والقيود ، .

يجدد ايامه كالربيع ، ويدأب ، ويبدع ، ويذيع .

هو الموقظ في اليائسين ، روح اليقين ، وهو المعزّي ، وهو المعين .

هو الحامل المعول والمشعال ، ينير سُبل الحق ، ويهدم صروح الضلال .

هو المرشد ، والرائد ، والدليل ،

هو الجبل المشرق ، وهو الروض العاطر الظليل :

٥٥٥

هو مندوب الحياة من لدنه تعالى ، تبارك آياته ومعجزاته .

هو المندوب الاسمى فيّ وفيك ، وعليّ وعليك ، فاستمع اليه :

ان كنت مكتئباً ، فلا تكن يائساً .

وان كنت يائساً ، فلا تكن جامداً .

وان كنت جامداً ، فاذكر انك خُلقت للخلود .

فهل تريد ان تُخَلَّد كالجلمود ؟

ان المذلّة لفي الحياة الجامدة ، لا في الموت .

وان الموت على رأس الجبل لَنور يضيء .

فان مت في الغور ذليلاً ، عشت خالداً في المذلّة .

وان عشت حراً كريماً ، ومت حراً كريماً ، كانت الحرية ركناً ، والكرامة نوراً ، لخلودك السعيد .

٥٥٥

انا المندوب الاسمى عليك وفيك ، فاستمع الي :
كن مغامراً ، و كن جسوراً ، و كن أبيا ،
فان الله يحب المغامرين ، الجسورين ، الأباة .
و كن مجاهداً ، و كن مثابراً ، و كن في الحق عتيّاً ،
لان الله يحب المجاهدين ، المثابرين ، العتاة .

٥٥٥

انا المندوب الأسمى فيك ،
انا الرسول الاقدس اليك .
ولقد جئتك من العالم الاعلى ، والبلد الاقصى ، من الجبل المقدس جئتك ،
ومما وراء الافق الأنور ،
وهذه حقائبي وقد كُسيتْ بالغبار الذهبي والفضي ، غبار السماء ،
وغبار الجبل والبيداء .
وهي ملأى بالكنوز الخالدة .
اني احمل اليك هدية من الشمس ، واخرى من القمر .
واحمل اليك سلام الجوزاء والمجرّة ،
وذكرى الفيض الشامل العجيب المُثبت الازلَ والخلودَ في سلسلة الحياة .
واحمل اليك رسالة من رب الكائنات ، كلمتها الاولى ، الى الامام
وكلمتها الاخيرة : الى الامام على الدوام .

٥٥٥

وقد جئتك بغيرها من الهدايا الغالية الخالدة .
ان في هذه الحقيبة بحراً من شذا الورد والياسمين ،

ومن طيب الرياحين ،
ومن بهجة المروج والبساتين ،
وفي هذه الحقيبة فيوض من سكينة الغابات ،
ومن طمأنينة الربى ،
ومن شمم الرواسي ، وكرم الاودية ،
ومن عبير الصنوبر ، وبخور البُطم ، ونفح الغار ،
ومن عنبر العصفر والوزال ، وسحيق المسك والجلفار .

٥٥٥

هل انت بائس مكروب ؟
هي ذي هدية الفجر اليك ، وهي ذي هدية المغيب —
بحراً من النور الهادىء فوق بحرٍ من الالوان الفاتنة ، فوق بحرٍ من ذوب اللُجَين ، فوق كنوزٍ من اللؤلؤ والمرجان ، والزمرّد والياقوت ، وقد صُهرت كلها في بوتقة الشمس —

٥٥٥

هل انت بائس محزون ؟
ان في هذه الصندوقة موسيقى الحياة —
الحاناً مطربة شجية ، والحاناً تضرم في الدم ناراً قدسية ، والحاناً تسكّن منك العصب والبال ، والحاناً هي السحر الحلال .
جئتك بها من فم البلبل والهزار ،
ومن قلب السواقي والامطار ،
ومن الجنادب في الادغال ، والاجراس في الجبال ،

ومن صفير الرياح في الاوديـة الندية ،
ومن هدير الامواج على الشواطىء الذهبية .

◇◇◇

اني عدو اليأس ، ومعين اليائسين .
جئت ابعث فيك المرَح والحبور ، والهمة والنشاط والامل والايمان ، وحبَّ المغامرة والمغالبة .
جئت اقول لك ان الصحة والمال والبنين لأشياء تُذكر اذا ما ذُكر الجمال وحسن الحال .
ولكن اجمل منها الشجاعة وعزة النفس ،
واجمل منها الحرية ، والمثل الاعلى في الحياة .
اجل . ان الورد في وجنتيك ، لخير من الذهب بين يديك .
ولكن الكرامة والاباءة والجسارة هي خير من الصحة والمال .
بل اقول لك ان غضبةً لِكرامة ، لخير من اليسر والسلامة .
وان جنوناً في سبيل الحق والحرية لخير من الرصانة والعبودية .
وان عزاً في المماة لخير من حياة شاكية باكية ، تتوسد اليأس وتلتحف الخنوع .

◇◇◇

فهل انت ممن يتوسدون اليأس ويلتحفون الخنوع ؟
ان كنت كذلك ، وكان ما جئتك به باطلاً في نظرك ،
فهاك المسدس وفيه كل ما تستحق — رصاصة واحدة لا غير .
انما اقول لك انا المندوب الاسمى فيك ، انا الرسول الاقدس اليك ،

اقول لك الكلمة الاخيرة ·

قبل ان تدفن الرصاصة في صدرك ، فكر قليلاً ،

فكر في خلودك بالمذلة ·

ثم اشرب من الماء كأساً او كأسين ·

واخرج الى العراء وامشِ ساعة او ساعتين ،

امشِ مشية من يفر هارباً من نارٍ سارية او ذئابٍ كاسرة ·

بل مشية مفتون مجذوب ، مجنون — مفتون بفكرة او خيال ، مجذوب الى مهبط الوحي والكمال ، مجنون برب الطبيعة والجمال ·

واذكر هداياي اليك ·

انشدها تجدها حولك وفيك

فتعود اذ ذاك الى بيتك وانت رب نفسك ، ربّان سفينتك

تعود وفيك من الهمة والنشاط والمرَح والحبور وقوة الفكر والارادة ومن الثقة بالله وحبّ المغامرة والمغالَبة ما يكفيك لتنقذ نفسك وتنقذ غيرك من غمرات اليأس ومن عبودية الخمول والخنوع ·

الشموع والشموس

مقالٌ من الجزء السابع من الريحانيات الذي لم يطبع بعد وقد فتح الكاتب للناس باب الطموح على مصراعيه . فترى وانت في طموحك افاقاً بعيدة لا تحدها حدود .

صوتان يتصاعدان من اعماق النفس اللجبّة ، صوتٌ يسأل دائماً : وما الفائدة لك وللناس من كل ما تعلم ؟ وصوتٌ مؤنّب يقول : وما علمك كلهُ اذا قيس بما تجهل من العلوم ؟ انه لكفتور الشمعة بالقياس الى نور الشمس .

صوتان ، صوت يزهدني في العلم ، وصوت يستزيدني منهُ . ولطالما أصختُ الى الصوت الثاني ، فاصبحتْ شمعتي شموعاً ، تنير القريب من مسالك الفكر والخيال ، فانظر اليها بعينٍ قريرةٍ وانا اقول : زدني اللهمَّ نوراً .

وبعد ذلك ، بعد سكرةٍ من سكرات النور ، اسمع الصوت الاول ، صوت التسآل والريبة ، فاتصامُّ واصلّي .

— اهدني ، اللهمَّ ، السبيل القويم الى مطلع الشموس والاقمار . اجعل النور قباني الدائمة ، ومنيتي القصوى ، ومحجتي المقدسة . ان أظلم الشرق فامحُ اسم الشرق من قلبي ، وان أظلم الغرب فانزع اسم الغرب من دنياي . نأيّاً ، اللهمَّ ، عن اقطارٍ هوتْ كواكبها ، وأفلتْ شموسها . لا تجعلني ، ربي ، قيد ظلماتٍ مصابيحها كبريق الحباحب في الادغال ، او كوميض الفصفور

ليلاً في البحار . نوراً ، اللهمَّ ، وان في الصحاري المقفرة . نوراً وان في اقاليم السود والصفر من الشعوب . نوراً وان في اقطاب الجليد المهلكة . نوراً وان كان في النور فناءٌ ابدي .

ولا اكاد انتهي من صلاتي حتى اسمع الصوت الاول يقول ويردد القول سائلاً : وما الفائدة لك وللناس من كل ما تعلم ؟ ما الفائدة من النور الذي تزداد في ازدياده مناطق اللانهاية المظلمة ؟ أفلا يُفَضَّل عليهِ نور الشمعة القريبة منك ، وهو يريك ظلك وقد تعاظم ، ويريك الظلمة وقد بدت شفافةً ، ضئيلةً ، محدودة ؟ اجل ، انك في نور الشمعة كبير الظل ، عظيم القدر . انك سيد المخلوقات جميعاً . وانك لذلك قريب من الرب « مراقبة » ، ربِّ أُمك وابيك ، ربِّ اجدادك ، ربِّ الرسل والانبياء ، وقد رُوي انهُ قال باللغة العبرية : انا الرب الهك ، لا آله لك غيري . وباللغة العربية : وانا ربكم فاتقونِ .

صوت يزهدني في العلم ، ويزّين لي السكينة والقناعة ، والورعَ والطاعة ، ثم يقول : هوذا جزاءُ الاكتفاء ، فاكتفِ . وهل اكتفي بنور شمعة من العلم والايمان ؟

شمعةٌ من الايمان ، وتعظيم للانسان ، وتحقير للزمان ، وتسخير للاكوان ! وبعد ذلك ماذا ؟ أمن اجلي انا أُنشئت الكائنات ؟ أليُنير الكوخ البشري ، هذه الارض ، خلق الله الكواكب والنجوم ، والشموس والاقمار ؟ ان ذلك لجميل ، وان الله في كرمه لعظيم .

وانا مع ذلك انشد النور ، واجترئ فأتدلَّل عليهِ تعالى . انك ، ربي ، كريم جدًّا ، فزدني من كرمك الذي لا حدَّ لهُ . أَنِرْ لي الشمس القصوى ،

شمس قلبك ليراها قلبي . فقد مللت النظر الى شمس الناس ، والى قمره ونجومه . أَنِرْ لي شمس روحك ، لتراها روحي . فقد كَلَّ البصر من الأنوار التي تتكسر اشعتُها بين سحُب الشك واليقين ، وقد سئمت النظر والتبصّر في كتب الايمان والكفر ، وليس في حروفها وكلماتها ما ينير الجادة اليك . نوراً من لدنك ينيرها . فقد أَضعتُ كتاب إيماني عفواً ، يا رب قد نبذت ذلك الكتاب المسجَّل فيه إيماني الاول وكفري الاول فهل هناك ما هو اقرب منهُ اليك ؟ أنر لي السُبُلَ لأبحث عنهُ . أدنني في الأقل من نور شمسك الخاصة ، شمسِ قلبك ، بيتِ قصيدك .

أفلا يجوز أن أُخاطب الله بمثل هذا الخطاب ، وهو الذي خلق من أجلي الشمس والقمر ؟ خلقهما من أجلي ؟ ! اذا كان هذا الوهم ينبوع ايماني الاول ، أفيُستغرَب ما كان من كفرٍ بعد ذلك ؟

وما الفرق يا ترى بين ذلك الكفر الأول ، وذلك الايمان ؟ ما الفرق بين شمعتين ينير نور الواحدة منهما غير المنطقة الاولى الصغيرة من مناطق الظلمة ؟

شمعة بيضاء مذهبة العنق ، أنارتها لأول مرة أُمي ، ووضعتها بين يدي ، وشمعة صفراء أشعلها من اجلي بهلق من بهالقة الفكر في الغرب ، فرميت بتلك المذهبة العنق ومشيت حيناً من الدهر في نور هذه الصفراء ، بل في نور الصفراء الأصفر ، وقد ذهّب حواشي الظلمات أمامي ، فاراني فيها النفس كأنها منعكسة في مرآة مكبّرة ، فعراني من الجذل والعجب ما عرا آدونيس يوم رأى وجهه لاول مرة منعكساً في الماء . هي نفسي ، وقد تجسمت وتجملت امامي ، فكيف لا اتهلل بها ، هاتفاً لها ، ومكبراً اياها وقد تهللت ، وقد اكبرت . ثم سمعت الصوت الاول ، صوت الريبة

والتسآل يقول: وماذا يفيدك الاعجاب بنفسك؟ وماذا ينفع جمالها الخيالي؟ هل تطيعك هذه النفس اذا ما امرت؟ وهل هي تستطيع ان تعمل بما انت آمرها؟

أنِرْ لي شمسك الخاصة، يا رب الشموس، لأبحث عن نفسي التي أضعتها مساء امس .

هذه الضراعة جميلة ، وان فيها خيراً ونعمة . فهل يمكنك ان تقول للنفس الغريرة : أشعلي لي كوكباً من كواكب الحقيقة لأبحث عن آلهي الذي اضعته الليلة البارحة ؟

اقول لا ، وأقول نعم . ومما لا شك فيه اني ابتغي النور في الحالين . على اني في حاجة الى النور الاسنى، الى النور الابهى، الى النور الخالد الازلي . وان كنت قد اطفأت شمعتي البيضاء والصفراء ، وغسلت يدي مما تساقط عليهما من ذوبهما ، فذلك لاني اصبحت ولا ارضى بالنور الذي يريني الكون في صورة مادية، كأنه خلق من اجل نفسه ، كما اني لا ارضى بالنور الذي يريني في صورة دينية محدودة كأنه خلق من اجلي .

ولكن صوت التسآل والريبة يقول : انك جزءٌ من الكون الذي تصف ، فاكتفِ . اما النور الاسنى ، فانهُ يريك الكون الاكبر . وفي الكون الاكبر تصغر ، ثم تصغر ، فتضيع ، وقد تضمحلُّ . فهل هذا هو النور الذي تنشد ؟ هل هذا هو العلم الذي تطلب الزيادة منهُ ؟

اجيب نعم . هو النور الذي يهديني الى ذرى الفكر ، فأرى منها ما لا اراه وانا في الاغوار احمل شمعة مذهبة العنق، او شمعةً عسليةً . اجيب نعم . هو العلم الذي يرفعني الى ذُرى الفكر واليقين ، فاسمع ما لا اسمعهُ وانا في ضجة من العبادات، عبادات الدنيا وعبادات الآخرة، عبادات النفس والجسد،

وعبادات الاولياء والقديسين ٠

اني في تلك الذرى جزء من الفكر الخالد الازلي، وعند الفكر الازلي الخالد تنتهي العبادات كلها ٠ اني في تلك الذرى زهرة من ازهار الحب الدائم العميم، وفي الحب العميم الدائم تتلاشى العصبيات الدينية والقومية كلها ٠ اني في تلك الذرى بذرة من بذور الخير الانساني الاكبر، وفي الخير الانساني الاكبر تضمحل الضغائن، وتزول الخصومات، في مشارق الارض ومغاربها، وبين الامم جمعاء ٠

بذور للزارعين

العمل هو يد السعادة اليمنى ويدها اليسرى الاقتصاد

.....

الحياة مضيق بين ابديتين ٠ ووميض برق بين غيمتين غامضتين

.....

احب من الجمال ما كان فيه شيء من القباحة ومن الحركة في الجمال
ما كان فيها كياسة وملاحة ٠ ومن السكوت في الجمال
ما كان فيه كثير من الفصاحة

المقامة الكبكجية

هذا العنوان مألوف في الادب العربي القديم وقد اختاره المؤلف للمقال التالي الذي يكوّن فصلاً من فصول الجزء الثامن من الريحانيات وهذا الجزء لم يطبع بعد . اما حلة الكتاب فحديثة ، اذ تحس وانت تقرأه كأنك تشاهد «فيلماً» من «افلام» الفن الحديث في الـ «ديسان أنيمه» (Dessins Animés)

حدثتني العُشّة قالت :

كنت في مكتبة المدينة ، انغلغل في الكتب الثمينة ، فعثرت على سفرٍ من الاسفار ، مغلّفٍ بالغبار هو « بلوغ الادب ، في الضحك والطرب » . وقد كنت في غمٍّ واكتئاب ، فاستبشرت بذلك الكتاب ، ورحت امنّي النفس بالكنز المكنون ، في الفكاهة والمجون ، وأنا اقول لها : كفاكِ الكدح في الورق المصقول ، من مؤلفات كبار العقول . هذا كتاب في الضحك فابشري ، ولا تستصغريه ولا تستكبري ، فالضحك من نِعمِ الحياة ، لسائر المخلوقات ، حتى للعُشّ والمكروبات .

ثم زبّت حنجرتي ، وشحذت ناقرتي ، ودخلت الكتاب ، من اول الابواب ، فنقرت منهُ بضع صفحات ، في الاصول والغايات ، وكنت كمن ينشد ابا الصنّاجة في جنازة . فخرجت مسرعًا الى العراء أستنشق نقي الهواء . بعد ذلك استشعرت الامل ، وعدت الى العمل ، فدخلت الكتاب

العويص المعاني ، من الباب الوسطاني ، وشرعت اقرم فيه ، قَرْمَ الشريه بل قرمَ الفقيه ، فنفذت من خلال غباره الى حواشي اسراره ، وتعثرت هناك بمدَرِهِ وحجاره ، بل سقطت بين فصلَيه ، كمن أُغمي عليهِ ، فبادرتْ اليَّ الشقيقات ، بالمراوح والمنعشات ، فأنقذتني من شر النكبات .

ثم شعرت بنشاط تجدد ، وعزم تسدد ، فهجمت هجماتٍ متوالية ، على بروج العلم العالية ، بل طفقت احفر تحت اساسها ، نكايةً بجبرها وقرطاسها ، فهدرتْ وهي تهبط عليَّ ، فصحت : اليَّ اليَّ ! ان في هذه الابراج جنًّا يجلجلون ، ويضحكون ويقهقهون .

وهناك بين الردْم رأيت سراجًا ضئيل النور ، وسمعت صوتًا كصوت الناعور ، فاذا بجنّي من اقزام الجن ، يتمطى ويئن ، بدا صغيراً وغدا في لحظةٍ كبيراً خطيراً . وجههُ كالسنكِسار[1] المفتوح ، والاحرف فيهِ كالقروح ، متنُهُ صغير الحد ، وهامشهُ بياض يمتد ، وفي رأسَيْ الصفحتين عينان مستطيلتان ، هما العنوان . وفي اسفلهما تتزاحم وتلتف الحواشي ، كالشعر في لحية النجاشي . ومن وسطه تبرز الاقلام ، كأنها السهام . يداه محبرتان ، وساقاه محدلتان طويلتان ، تحتهما رجلان مستديرتان ، كأنهما دولابان . فكان يدرج في مشيهِ كالدولاب ، وكلما تكلم سقط من فمهِ الكتاب تلو الكتاب .

وقف هذا المخلوق العجيب في نور السراج الكئيب ، ثم صاح بي ، وهو يدرج من صوبي : كفاكِ فضولاً وافتراء ، يا ابنة الصوف والفِراء !

فتشجعت وقلت : احسنت احسنت ، ومن انت ؟

---

(١) كتاب فخم كبير في تراجم الصالحين واعمالهم يقرأ في الكنائس .

فقال، وهو ينفخ كريح الشمال: انا كَبْكَجُ رب الكتابة والكاتب، وحامي الكتب والمكاتب · احميها للطالب والسالك، واحفظها من المهالك، ومن غوائل امثالك، ولكني رأيتك للعلم طالبة، وبالتفقه راغبة، فجئت اعينك لبلوغ الادب، في علم الضحك والطرب · فاعلمي، وُقيت شر العيون، ان الذين لا يضحكون، في ما يكتبون، هم للزمان، البواصر والآذان · فلا عجب اذا كان العلماء، للضحك اعداء · فان حياة الانسان، لأشجان كلها واحزان · فهل يضحك المنكوب والمحزون، وهل في التطريب ما يطرب المظلوم والمغبون؟ أولم يقل الفيلسوف الشهير، مشرّح السنانير، ان الضحك دليل على ضعف العقل والتفكير؟ أوَلم يقل العالم بترهات الانام، الاستاذ ابو كلام: كلما تغلغلت في اسرار الحياة، بعدت عن الضحك والمضحكات؟ أو لم يقل احد الاختصاصيين، بالجنون والمجانين ····

قالت العُشَّة: وبين كان كَبْكَجُ يخطب خطبتهُ، ويعزز بالادلة حجتهُ، احسستِ بشيءٍ يضغط عليَّ، عند مِذْرَوَي، فانسللت من حضرة ذلك الغول، وانا اقول: ما اثقل العلماء، وما ابلد الحكماء، اولئك الذين لا يرون في الحياة، غير الدود والحيّات · فقد نشدت في العلوم، ما يكشف الغموم، فاذا بالسفر الجليل، كالحمل الثقيل، على قلب العليل ·

فقلت، وما أطلت: أفلا يضحكك من لا يضحكون، وهم في خرائب الضحك ينقبون؟ أوَلا ترين النكتة في النقاب، الكثير الاثقاب؟

فغمغمت تلك الوادعة، وقالت متواضعة: مثل هذا التفكير · هو دون عقلي الصغير · ولكني مضيت في الامر، انشد في الكتب الصناجة والزمر · فلقيت الكتاب، الذي يضحك حتى البوم في الغاب، ويطرب حتى

الغراب . والغريب في عنوانه ، انهُ لا ينبىء بشيءٍ من بيانه ، وهذيانه ، هو « فصل الخطاب ، في علم الاكتئاب » . واني اشهد بكبكج الدميم ، انه كتاب كريم ، يلقيك في بحرٍ من الحبور ، ويرفعك الى سماء الطرب والسرور ، فينسيك كل هم ، ويجدد فيك حتى البشرة والدم .

ولقد طربت بآياته ، في اول صفحةٍ من صفحاته ، وفيها ان الاكتئاب ، هو رأس الاسباب ، في بلاءِ الشيوخ والشباب . وفي غيرها الحديث الشريف ، والقول الطريف . فقد رُوي عمن كان مثال الورع والوداعة : « روّحوا القلوب ساعةً بعد ساعة » . وقال ابن اسحق لمن تترّحوا ، وبوزر الوقار رزحوا : « لقد طرب الصالحون وفرحوا » . وفي الصفحة الاخيرة ، هذه الدرّة الصغيرة : « الوجه العبوس ، بدهن الضبِّ مغموس »

بعد هذا الخطاب ، عادت العُشّة الى الكتاب ، تقضم في صفحاته ، وتتلمظ بطيباته ، وهي تحسب الحياة كل الحياة ، ساعةً من اللذات . وبين هي في ذلك النعيم ، ظهر كبكجُ الظليم ، فصاح بها قائلاً : اتحتقريني ، وتفرين من ظل عرنيني ! ألاَ ومن برى الاقلام ، ورَكّب الالفاظ والكلام ، سأسحقنّك سحق الكراويه ، يا ابنة الطنافس الغاويه !

ثم تناول بطرفي الباهم والسبّابه ، كتاب الغم والكآبه ، ونفخ فيهِ نفخةً صفرت ودوت ، فطارت العُشّة وهوت ، فنظر اليها وهي امامه ، ثم درج عليها وفي فمه ابتسامة ، وتوارى وهو يقول : من عاش قليلاً ، كمن عاش طويلاً . وفي بواكر اللذات ، تُحمَد النهايات .

الفهرست

صفحة	
٣	تآليف الريحاني
٩	رسمه
١١	امين الريحاني (سيرته)
٢٠	انتقاد تاريخ الثورة الافرنسية
٢٣	مختارة من « وادي الفريكة »
٢٥	في الباب
٢٧	الشعر والشعراء
٣٠	النجوى
٣٣	نبذة من مقدمة « ملوك العرب »
٣٨	في الطريق الى صنعاء
٤٩	في ظل الشراع
٥٥	النجوم — The Stars
٥٦	حصاد الزمان
٥٨	مختارة من « التطرف والاصلاح »
٦٠	مختارة من كتاب « النكبات »
٦٢	الشاب المجهول

صفحة

٦٤ احتلال الرياض
٧٢ قلوب تذوب
٧٣ الجو المكفهر
٨١ الفصل الاول من « وفاء الزمان »
٨٥ مغزى اللبنة
٩٠ أرز لبنان
٩٣ جبل طارق
١٠٤ رسالة من كتاب « رسائل امين الريحاني »
١٠٦ التجديد المزيف
١١٤ المندوب الاسمى
١٢٠ الشموع والشموس
١٢٥ المقامة الكبكجية

بذور للزارعين الصفحة : ٢٦ — ٣٢ — ٥٣ — ٦١ — ٦٣
٨٠ — ٨٩ — ١٢٤

A.U.B. LIBRARY

DATE DUE

AUB LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00512477